أدب الرحلات

سمير محمد

أرصفة متسرعة

لقاءات الغرباء في مدن نائية

إيميل المؤلف: samirsma@gmail.com
جميع الصور من تصوير المؤلف
يمنع طباعة أو تصوير هذه المطبوعة أو أجزاء منها, أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف.

العنوان: أرصفة متسرعة (أدب الرحلات)
المؤلف: سمير محمد
المقاس: 14 * 20 سم
الطبعة الأولى: 2024
@ حقوق الطبع محفوظة

صدر للمؤلف:

- **رواية السلاحف العرجاء** 2021

- **ديوان شعري بالفصحى: تأتين.. سامية** 2022

- **رواية موكا سيتي** 2022

أرصفة متسرعة

لقاءات مع وجوه عابرة في بلدان مختلفة

الإهداء:

إلى أولئك الغرباء الذين جمعتني بهم الطرق وحجارة الأرصفة, شكرا لكم لأنكم جعلتموني أتذكركم كل هذه السنوات بسبب لطفكم ونقاشاتكم المثمرة مع غريب في بلد غريب, ولأنكم منحتموني الفرصة لأن أكتب ما أريد من خلال مادار بيننا من نقاش أو عبر تشاركنا الخطوات في عبور الأرصفة ذات سفر معا.

أهدي بعضكم هذا الكتاب الذي لن تروه ولن تعرفوا به, وعلى الآخرين أن ينتظروا باقي الأجزاء في غيابهم..

سمير محمد

حوار مع يهودي على متن الطائرة

حوار مع يهودي على متن الطائرة

كنت في المطار القديم لمدينة "جوانزو" في جنوب الصين, حيث كان يقع قريبا من وسط المدينة, بانتظار رحلتي إلى مطار "هونغ كونغ" كمحطة ترانزيت, ولأن القاعة في ذلك المطار القديم صغيرة فقد كان بإمكاني مشاهدة كل المنتظرين على الكراسي, شاهدت شخصين يسيران في المقدمة وقد خمنت من شكلهما وبنيتهما الجسمانية ولباسهما بأنهما ربما من إحدى دول الشام العربية.

وعندما جاء دوري للصعود إلى الطائرة, أخذت في البحث عن مقعدي بحرص شديد حتى لا أخطيء كنوع من رهبة السفر الأول من بلاد لا تتحدث العربية, بمجرد وصولي إلى مقعدي كان الشخصان اللذان رأيتهما في قاعة المطار وظننتهما من دول الشام, يحتلان المقعدين في الداخل تاركين لي المقعد الثالث بجانب الممر, قمت بوضع حقيبتي في الأعلى, وسلمت عليهما

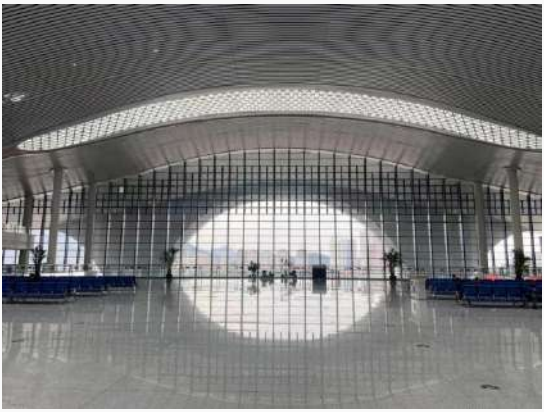

صورة لمطار جوانزو الحديث وأخرى للمدينة من الجو

إلا أنهما لم يردا, فظننت جهلا بأنهما من المسيحيين المتعصبين, ولصغر سني حينها لم أفكر بأنهما سيردان السلام والتحية لو كانا كذلك, فجلست صامتا غير مبال بهما مطلقا.

كانا في نهاية العقد الخمس من عمريهما, يرتديان بنطالين من الجينز الأزرق وفانلتين بولو مخططتين, وكان الشخص الذي في الكرسي المجاور لي منهما ممتليئ الجسم على عكس الشخص القابع إلى جوار النافذة, بعد لحظات وبينما كان الجميع من مسافرين ومضيفين منشغلا بالإقلاع, كنت أحاول أن أرى المدينة من الجو وقد شاهدت شريانها الجميل نهر اللؤلؤ وهو يخطها من الشمال إلى الجنوب, هذا النهر الذي عبرت عليه قوافل التجار والحكام والغزاة بينما هو اليوم يشهد أكبر حركة تجارية تستوعب ملايين الحاويات التي تنطلق من المدينة أو من المدن المجاورة لها إلى كل أنحاء العالم وكل بيوته وحجراته.

التفت الشخص الجالس إلى جواري منهما مباشرة, وقال لي بلهجة شامية لم أحدد بعد من أي بلد:

ــ من أين أنت؟!

ــ أنا يمني

قلت بهدوء متجاهلا عدم رده لسلامي:

ــ يمني من اليمن؟!

بدت مني ابتسامة ساخرة, ربما كردة فعل غير متعمدة على تجاهلي في البداية, وقلت له بسخرية:

ــ أكيد.. يمني من اليمن, وأنت من أين؟!

ــ من إسرائيل

كان ينظر إلى عينيِّ مباشرة رغم امتلاء جسمه ليرى ردة فعلي, لكني قلت له:

ــ تقصد من فلسطيني الداخل

بدت ملامح وجهه ترتخي وهو يشعر بالخيبة من تجاوزي للصدمة, فقال لي بسخرية:

ــ لا.. أنا يهودي

لن أكذب إن قلت أني لم أندهش, لكن كانت دهشة طبيعية على كل حال فقلت له متسائلا:

ـــ يهودي .. يهودي؟!

هز رأسه بالإيجاب وهو يسألني باستهزاء:
ـــ لماذا؟!, هل أنت خائف؟

استفزني في الحقيقة أسلوبه, ولو كان بادرني بأسلوب آخر لكنت تقبلت الأمر منه, لكنه رأى شابا في منتصف العشرينات آنذاك فأراد أن يستعرض علي بعضلاته الفكرية والأيدلوجية, كما أن وسائل الإعلام أسهمت في تكريس صورة نمطية عن الآخر مشحونة ومتوترة في زمن ماقبل وسائل التواصل الاجتماعي وبدايات المنتديات الإلكترونية المنعزلة, لذا فقد قلت له بتحدٍ, مظهرا له أني قد تجاوزت الدهشة:
ـــ بالعكس..أنتم الخائفون, تخافون من ظلكم هذه الأيام

كنت قاسيا في ردي, وأنا ألمح له لبعض عمليات التفجير التي قام بها بعض الفلسطينيين وأشهرهم كانت "آيات الأخرس" التي تنتمي لمنظمة فتح وقامت بتفجير نفسها في "القدس الغربية" وقتل بعض الإسرائيليين وفي ذهني كانت تدور أبيات الشاعر السعودي الكبير"غازي القصيبي" رحمه الله في رثائها, وأعترف بأن طريقتي في الرد كانت ستتغير ربما بالقدر الذي كانت ستتغير

به طريقته, لكن الأحداث والمجريات آنذاك كانت تدفعنا دفعا إلى التشدد في آرائنا وطرحنا.

نظر إلى أمامه لبرهة وكأنه يفكر قبل أن يقول بلهجة فلسطينية استطعت تمييز لكنتها المكسورة بجلاء هذه المرة, مغيرا طريقة حواره:
ــ ماذا يريد ياسر عرفات؟ عليه أن يصنع السلام, هل يخشى على نفسه وهو في هذا السن المتأخر من أن يأتي حمار ويقتله!!

مازال لم يتخلص من أسلوبه الاستفزازي, وإن بدا أنه أصبح لطيفا, لذا كان عليَّ أن أرد عليه بقوة لكي يتجاوز موضوع عمري وافتراضه لجهلي, وأن عليه أن يحاورني بطريقة أفضل وأرقى , فقلت له مقلدا أسلوبه ولهجته:
ــ معك حق, كان لديكم إسحق رابين بعد توقيع اتفاقيات السلام مع الفلسطينيين والأردنيين, جاء واحد حمار منكم وقتله!!

يبدو أنه تحمل صدمة ردي ببسالة هذه المرة, وهو يعرف بالطبع أني كنت ألمح إلى عملية اغتيال رئيس وزراء إسرائيل الأسبق "إسحق رابين" من

قبل أحد المتشددين اليهود, من "إيجال عامير" لاعتقادهم أن رابين كان يقوم بالتفريط في أرض إسرائيل الموعودة في التوراة لصالح الفلسطينيين. قال لي متسائلا:

ــ هل كنت تعلم أن قاتله من أصل يمني؟!

ــ حقيقة لا

يبدو أنه عاد للحوار معي وقد خفف من حدة لهجته وهو يقول لي بخبث:

ــ هناك زعيم عربي من دولة مجاورة (ذكره بالاسم) عمل سلاما معنا في السر منذ خمسين عاما

قلت له بهدوء:

ــ الموضوع لا يتعلق بالسرية أو العلنية بعد "مباردة السلام العربية" التي أقرها الزعماء العرب قبل بضعة أشهر, وأنا مع مايقرره العرب ومنهم دولتي, الموضوع مرتبط بمدى الوصول إلى السلام وجدية الوصول إلى السلام.

قال لي مستفسرا:

ــ وضح أكثر

ــ سلام ماتحت الطاولات فلا يصنع حدثا, هاهي "إيران" قامت بتسليمكم صورة مفاعل "تموز" العراقي أثناء الحرب "العراقية ــ الإيرانية", والصور

منتشرة في الإنترنت بعد أن التقطها الطائرات الإيرانية وسلمتها لكم, وهي الصورة التي اعتمد عليها الجيش الإسرائيلي لقصف المفاعل, رغم أنها كانت بعيدة عن حدود إيران, ومع هذا فإن ذلك التعاون لم يصنع سلاما بينكم, وهاهي "إيران" تسعى لمحاصرتكم من كل جهة, وسوف تستفيقون في أحد الأيام لتدركوا أن السلام مع العرب ضروري, وأن الغرب لديه استعداد ليجعلكم تحت ضغط مستمر مقابل مصالحه هو واستنزاف رأس المال اليهودي بشكل دائم.

قام بهز رأسه متأملا ومكتفيا بالصمت, فسألته:

ــ أن تتحدث العربية بشكل جيد كأنك فلسطيني, أين تعلمتها؟

قال لي مبتسما:

ــ منذ صغري والفلسطينيون يعيشون بيننا, ويعملون لدينا في مصنع النجارة الذي يملكه والدي ومازلت أديره, فنحن متعايشون معا ومتداخلون.

ــ هل عدد الفلسطينين اللذين يعملون لديكم كبير؟

ــ أجل هناك عرب إسرائيل منهم الموظفون مع الدولة وهناك العمال في مختلف القطاعات, ولأن أجورهم مرتفعة ومستواهم المعيشي أفضل فإننا

نستقبل عشرات الآلاف من العمال من الضفة وغزة, وهم يقبلون بأجور أقل في أشغال يرفض فلسطينيو إسرائيل العمل بها.

لم أكن أعلم حقيقة ما قاله, فهذا الموضوع بالذات يخضع لتعتيم كبير عربيا, ولا تتحدث عنه القنوات ولا الفلسطينيون, فلا يوجد فلسطيني يظهر ليتحدث عن عمله في إسرائيل مع الإسرائيليين, حتى من فلسطيني الداخل.

في وسط أفكاري, سألته مباشرة:

ــ هل تعلم أن ليهود اليمن دور في بناء تل أبيب؟

ــ حقا؟!

ــ نعم, في الحقيقة كان اليمنيون متواجدون قبل بناء تل أبيب في عهد "عبدالحميد الثاني"

ــ هل لديك مصادر تاريخية؟

ــ سأخبرك بالقصة وعليك أن تبحث عن المصادر بنفسك, فأنت لا تبحث عن مصادر تاريخية على متن طائرة في الجو

ــ حسنا..

ــ في عام 1881م كان هناك تاجر يهودي يدعى "أهارون تشيلوش" , ابتاع مجموعة من الأراضي الزراعية التي كان يعمل بها مجموعة من اليهود

اليمنين, ومع مرور الوقت أصبحت المنطقة تسمى كرم اليمنيين.

كنت صادقا في كلامي حتى وإن لم يكن هو يعرف هذه الحقيقة كإسرائيلي, حيث أسميت المنطقة بالفعل "كرم اليمنيين", وبالعبرية (كرم هتمينيم) في عهد السلطان التركي "عبدالحميد الثاني", وفي عام 1896م أسسوا "محانيه يهودا", وبعدها بثمان سنوات "محانيه يوسف", وبعد بناء مستوطنة "تل أبيب" عام 1909م, ومع توسعها أصبحت مناطق اليمنيين جزءا من "تل أبيب", ثم تشكل حي شبزي نسبة للحاخام اليمني الشهير "سالم الشبزي" الذي عاش ودفن في تعز في بدايات القرن الثامن عشر الميلادي.
وظل الحي فقيرا إلى حد ما قبل أن يشتري العقارات يهود من دول أخرى منهم فرنسيون وغيرهم ومازال الحي يملك الكثير من المطاعم اليمنية ، لكن أول حي تأسس في المنطقة بواسطة اليهود الشرقيين اسمه "تفيه تسدك" عام 1887م, والشارع موجود في "تل أبيب" بإمكانه الاستفسار عن سبب التسمية. فيما بعد جاء المستوطنون "الإشكناز" وسكنوا بالقرب منهم ثم اختاروا المنطقة لتكون نواة لمستوطنة أسموها "تل أبيب", وتعني تل الربيع عام 1907م, من ضمن أكثر من ثمانين مستوطنة بنيت حينها وهي نواة إسرائيل الحالية.

بدت عليه الدهشة وهو ينظر إليّ, فاكتفيت بالصمت بينما أخذ هو يتحدث مع صديقه بالعبرية وأعتقد أنه كان يحدثه عما دار من حوار, ولم أشعر بسير الرحلة في الحقيقة وسط هذا الحوار المختلف والذي لن أحظى بمثله ولا بطريقته , وما هي إلا لحظات حتى كنا على أجواء "هونغ كونغ" نوشك على الهبوط, حتى إذا هبطت الطائرة بسلام أخذ كل منا يستعد لأخذ حقائبه , وجاري يقوم بتحيتي فحييته بمثلها, وانصرفت نحو طائرتي التالية في وجهة مختلفة بكل تأكيد عن وجهته لكننا وصلنا جميعنا بسلام.

سائق التاكسي في صنعاء الذي أصبح صديقي

سائق التاكسي في صنعاء الذي أصبح صديقي

قلت ذات مرة في صنعاء شعرا:

أراكِ وإنْ أغمضتكِ الجفون
كحلمٍ جميل بعينيَّ يرعى

كأنكِ في كلِّ ذكرٍ بلادي
وفي كلِّ صفحة ماضٍ كصنعا

في كل مرة أذهب إلى صنعاء في زيارات نادرة ومتباعدة, ينتابني شعور غريب من الرهبة والدهشة, مع مشاعر مختلطة من التوحد والحب الصوفي في هذه المدينة ــ التاريخ ــ كانت معظم زياراتي إلى "صنعاء" عابرة واضطرارية, لكن في واحدة من هذه الزيارات كنت على موعد لأن ألتقي

بشاب يمني, جعلني أعرف المدينة بكل تفاصيلها ويسهل لي أمورا كثيرة ماكنت لأعرفها لوحدي ولو ظللت قرنا كاملا أزورها, ليترسخ في ذهني أمر أصبح أكيدا في ذهني وهو أن المدن بأهلها لا بحجارتها ومبانيها, ولا حتى بأجهزة الدولة بها, كانت تلك المرة الوحيدة التي كان يرافقني فيها أهلي في صنعاء في زيارة مستعجلة من خارج اليمن لأيام لتوقيع بعض الأوراق الرسمية , فكان والديّ وأختاي وزوجتي وابنتي برفقتي هذه المرة.

كنت في الجهة المقابلة لمستشفى الجمهورية في "صنعاء" أبحث عن سيارة أجرة وقت الظهيرة ، والزحمة خانقة في "شارع الزبيري" الضيق مما زاد من تكدس السيارات. توقف سيارة أجرة بيضاء يقودها شاب ممتلىء القوام بالزي اليمني المعروف, اتفقت أنا وهو على أجرة المشوار إلى الفندق، كان يمشي ببطء مع الزحمة وهو يتلفت للخلف, سألته عن السبب فأخبرني بأنه قد أقل شخصا لاستلام حوالة مالية من صراف في نفس الجهة التي كنت أقف بها, فطلب الراكب منه بسبب الزحمة أن ينزل ليقطع الشارع للجهة الأخرى فيكون هو قد دار بالسيارة متجاوز الازدحام بعد أن يكون أنهى مالديه عند الصراف. طلبت منه من باب الرأفة به الإنتظار طالما أنه لم يستلم الأجرة منه, لكنه رفض رفضا قاطعا, وأنه يجب أن يوصلني طالما قد اتفق معي وأقلني، وأخبرني بأن الرجل لديه رقم هاتفه إن كان صادقا

سيتصل به, ورغم إلحاحي عليه إلا أنه أصر احتراما لي ألا يتوقف طالما سمح لي بالصعود, وفي الحقيقة احترمته على موقفه هذا.

وبينما نحن في الطريق تذكرت أن علي شراء الغداء لي ولأهلي في الفندق, فسألته عن مطعم جيد لمراضاة والدي المتذمر دوما, فأنا لا أعرف "صنعاء" فدلني على مطعم جيد في حي "حدة", فذهب بي إلى هناك مباشرة دون أن ينتظر ردي. وبينما هو ينتظرني في السيارة كنت أنا في المطعم أطلب الأكل مضيفا لطعام شخص واحد في كيس منفصل, وعدت للتاكسي كي يذهب بي للفندق. في باقي المشوار إلى الفندق عرفت منه أن اسمه "منير مجلي" من منطقة "ريمة" وغير متزوج, كان واضحا بأنه يعمل بجد و يتمتع بأخلاق رفيعة ولا يمضغ القات مطلقا وهو في هذا يشبهني, يبدو شابا يتمتع بقدر كبير من الأخلاق والنظافة في الهيئة والملابس. وعندما و صلت إلى الفندق سألته عن الأجرة, فأخبرني بأنه قد اتفق معي, لكني ذكرته بمشوار المطعم, لكنه أبى بدعوى أننا لم نتحدث مسبقا عن هذا.

كان النقاش غريبا بيننا حين كنت مصرا على زيادةالأجرة له, بينما هو يصر على الالتزام بكلمته معي. وحين وجدته مصرا بعد أن أقسم أيمانا مغلظة أنه لن يأخذ قرشا زيادة , قمت بإخراج الكيس المستقل الذي كنت اشتريته من

المطعم, ولم أكن أخبرته به سابقا, تفاجأ من تصرفي لكنه أدهشني بشكل أكبرحينما رفض أخذ الأجرة بزعم أن قيمة الغداء أكبر منها ، لكني أصررت هذه المرة على أن يأخذها لأني اشتريت الغداء مخصوصا له منذ البداية ولكني لم أخبره, وهو هدية من صديق لصديقه, كما طلبت منه أنه يعطيني رقم هاتفه للاتصال به في كل المشاوير لما وجدت منه من خلق ونزاهة خصوصا وأن أسرتي معي في مدينة غريبة حتى وإن كانت عاصمة بلادي.
أصبح "منير" صديقي في المشاوير في تلك السفرة ومعي أهلي إلى "صنعاء القديمة" وإلى "دار الحجر" و مشاوير خاصة بي متنوعة، وكذلك سفرات أخرى، وكنت أتواصل معه بشكل دائم في المناسبات و الأعياد حتى فقدت التواصل معه تماما بسبب تغيير رقمه ربما أو لسفره وقد بحثت عنه كثيرا في مواقع التواصل دون جدوى, لذا فأرجو أن يكون بخير.

برفقة "منير" كانت المرة الأولى التي أتجول بها في صنعاء القديمة بسبب زياراتي العابرة في ظل غياب الإرشادات واللوحات للغرباء أمثالي. ولو كانوا من أهل البلد وقد حاولت سابقا أن أتجول بمفردي وبالكاد وصلت إلى "الجامع الكبير" دون حتى أن أعرف أنه الجامع الكبير سوى بالتخمين, وشرح لي الكثير من مباني المدينة والمحال المشهورة وأسماء أسواقها التاريخية.
"صنعاء" نسبة إلى صنعاء بن آزال بن يقطن بن عابر فهي تعرف باسم

مدينة آزال وكذلك بمدينة "سام" حيث سكنها "سام" ــ كما تقول كتب التاريخ وأبناؤه ــ ومن اليمن انطلقوا إلى كل المعمورة، هي أعرق مدن الأرض وأكثرها سكنا وعمارة متصلة بالتاريخ، يوثق الرازي في كتابه عن تاريخ "صنعاء" في فترته التي عاش. بها في القرن الخامس الهجري أن "صنعاء" تعتبر خرابا كما عاصرها في عهد الضحاك ومع وصفه لها بأنها خراب إلا أنه ذكر أن عدد منازلها ألف وأربعون منزلا ومساجدها يتجاوز المئة وحماماتها بالعشرات وهذا يدل على عظمة المدينة حتى إن اعتبرها أحد أبنائها خرابا.

مدخل الجامع الكبير في زيارة منفردة

جامع "صنعاء الكبير" ابتناه الصحابي "وبر بن يحنس" رضي الله عنه. بالقرب من قصر "غمدان" وليس على أنقاضه, كما يزعم البعض حيث أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر الصحابي "وبر بن يحنس الأنصاري" ببنائه فبناه بين قصر "غمدان" و الصخرة الململمة التي تقع داخل الجامع اليوم, أما قصر غمدان الذي يقال بأنه تهدم في عهد "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه, فتقع في موضعه حاليا حارة "قندة" بمانيها الصنعانية المميزة، والجامع لمن يتأمل في الحديث النبوي سيجد أنه يقع بالفعل بين حارة "قندة" (قصر غمدان). وتقع والصخرة الململة في الجهة المقابلة المعاكسة تماما وهو وصف ينطبق على أرض الواقع ، أما رواية هدم قصر غمدان في عهد "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه فتحتاج إلى تأكيدات تاريخية لأنها ليست ثابتة.

تجولت رفقة أسرتي في شوارع المدينة العتيقة, متنفسين عبق التاريخ الموغل بالقدم لهذه المدينة فكل ركن من أركان منازلها هو قرن من التاريخ وكل منعطف هو جيل كامل من صفحات الماضي العريق, وقمت بالتقاط الكثير من الصور هذه المرة, وكان يرشدني "منير" لبعض المباني والأحياء ولم ننسَ أن نشتري حلوى الرواني الشهيرة الصنعانية وهو من أنواع الكيك المخلوط بالسكر المذاب الحاروهناك محلات تشتهر بها المدينة لبيع

الرواني قمنا بالشراء من أحدها, كما قمت بالتقاط الصور للجامع الكبير.

هذه المدينة كان ينبغي أن تصبح أكبر متحف مفتوح في الحضارات البشرية على الإطلاق لكن للأسف الشديد ينقصها كل شيء لتصبح كذلك, هناك مناطق وأحياء زرتها في بعض الدول لا يتجاوز تاريخها بضعة عقود بل إن بعضها حديثة تم إنشائها على طرز تاريخية, وتشهد توافد السياح من كل بلدان العالم وهي مليئة بالمقاهي والمطاعم ومحلات بيع الملابس والاستراحات والفنادق وكل شيئ يمكن يباع, بينما "صنعاء القديمة" محرومة من أبسط مقومات دعم السياحة فالتاريخ وحده لايكفي لجلب السياح, والواقع لايعكس عظمة الحضارة اليمنية ولا حضارة الشعب اليمني.

ومع "منير مجلي" زرنا في يوم آخر الجامع الجميل, جامع "الصالح" وصلينا به, وتجولنا في أنحائه كما تجولنا في أرجاء حديقته النضرة الجميلة, والجامع يشكل أيقونة من أيقونات الجمال ورمزا من رموز المدينة والبلاد بشكل عام حيث تفوح منه اقتباسات التاريخ دون أن يشكل تنافرا مع مظاهر صنعاء القديمة, وبما أن منير معي فقد وجدتها فرصة سانحة لأن أزور دار الحجر فلن تسنح لي هذه الفرصة مع أسرتي وسائق مثل "منير" وفعلا لم تسنح لي الفرصة مجددا بعد تلك المرة.

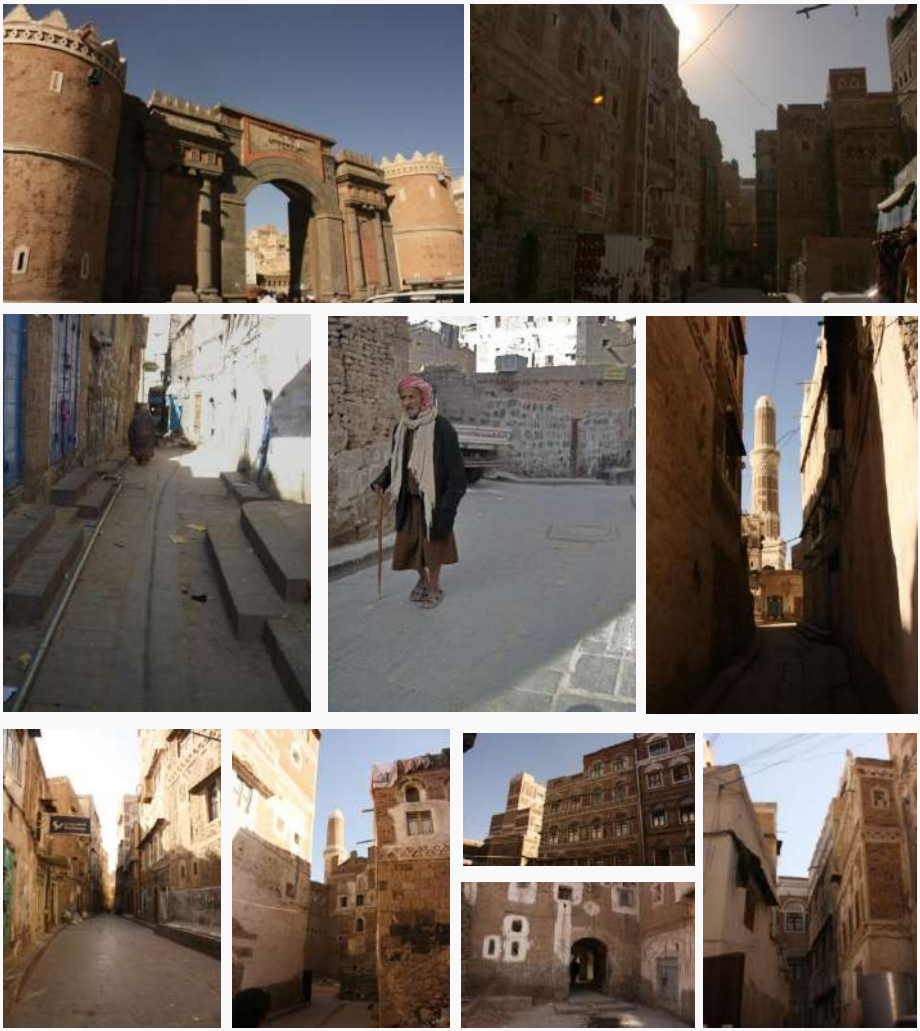

مشاهد من صنعاء القديمة

مشاهد مختلفة من جامع الصالح

دار الحجر.. أسطورة بناء

مدهشة لايلائمها الواقع

دار الحجر.. أسطورة بناء

مدهشة لايلائمها الواقع

يقع قصر دار الحجر في شمال غرب "صنعاء" في منطقة "وادي ظهر" الشهيرة على بعد أربعة عشر كيلومتر من المدينة حيث ذكر الوادي لأول مرة في القرن السابع قبل الميلاد في نقش النصر، وذكر المؤرخ الهمداني: «من مآثر اليمن، ضهر، وهو موضع فيه وادٍ وقلعة ومصنعة، منسوب كل ذلك إلى «ضهر بن سعد» وهو على بعد ساعتين من "صنعاء" أوأقل، وفي هذا الوادي نهر عظيم يسقي جنتي الوادي، وفيه ألوان من الأعناب وغراسه من البياض والسواد». وهو القصرالمبني على صخرة جرانيتية بنفس ألوان ترتفع إلى أكثر من ثلاثين مترا حجر المبنى كأنه انبثق من رحمها فشل عن طوقه الحجري والقصر المحاط بجنان نضرة من الرمان والخوخ والعنب والتين والسفرجل يتوسط المنطقة.

شيد على أنقاض قصر سبئي قديم عرف بحصن "ذي سيدان" بناه الحميريون عام 3000 قبل الميلاد. بناها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي العالم والشاعر"علي بن صالح العماري"، الذي عاش في الفترة بين(1736- 1798م) وعرف بمهارته الهندسية وعجائبه المعمارية، وقد بنى القصر الذي أمر

ببنائه الإمام «المنصور علي بن العباس» ليكون قصراً صيفياً، قبل أن يضيف الإمام "يحيى حميد الدين"، إضافات مهمة أدخلت على القصر باختلاف زوايا الجدران من كل جهة حتى تعطي مناظر مختلفة على الوادي.

فضلت حينها أن نستعين بأحد الموظفين لإرشادنا عن تفاصيل الدار أما تاريخيا فلم أكن أعتقد أنه يملك معلومات أكثر مني وهو ليس مؤهلا لا شكلا ولا مضمونا لأن يكون مرشدا سياحيا, وهذه من المألوفات في بلادي.

مر الحصن على أحداث تاريخية مهمة حتى تدمر على يد الأتراك قبل 400 عام، وأُعيد ترميمه في بداية القرن العشرين، على يد الإمام يحيى حميد الدين بعد أن توارثه عدد من الملوك اليمنيين قبله. منذ أن بناه الملك "أريم ملشان ذو يزن"، مؤسس السلالة الملكية اليزنية الشهيرة، التي ظهرت في بداية القرن الرابع الميلادي.

كان الدليل يخبرنا ببعض المعلومات القليلة التي يملكها ونحن نسير في أرجاء القصر, حيث تحوي الأدوار الأولى غرف الحراسة وعمال القصر، وفي الدور الثاني بئر حفرت في الصخرة التي يقف عليها "دارالحجر"، عمقها حوالى 70 متراً لتزويد القصر بكل مايحتاج إليه من مياه، وفي إحدى الغرف يخبرنا الدليل عن تحنيط المومياوات في مسطبة حجرية بأحد الغرف

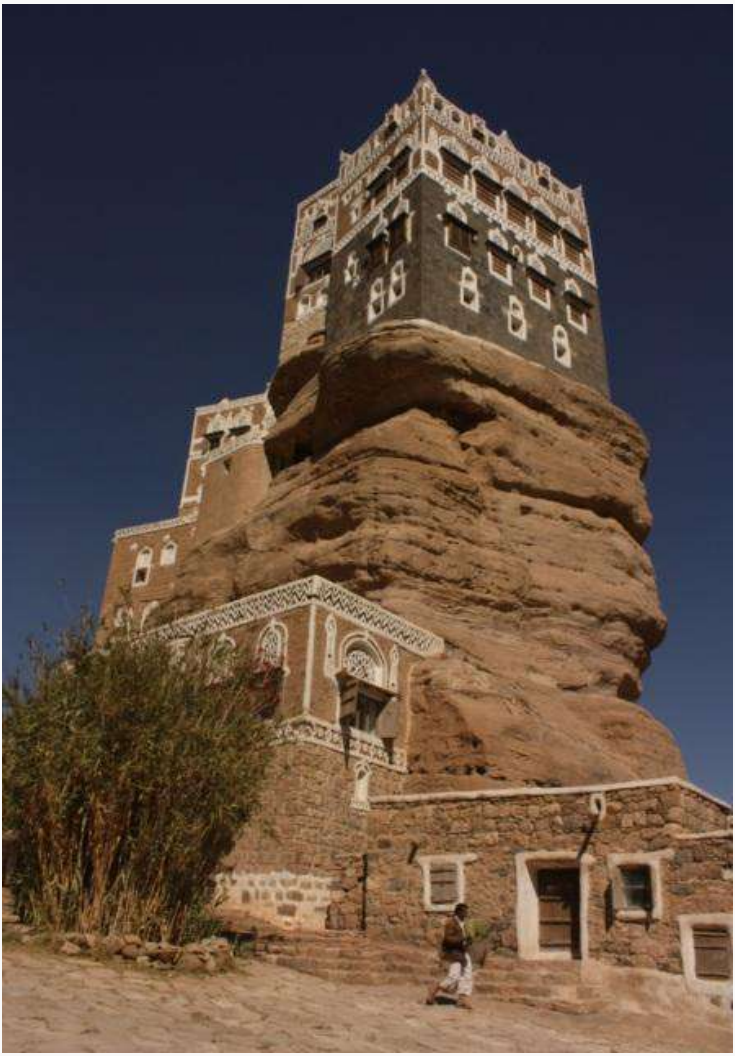

صورة لكامل دار الحجر من قرب

مشاهد مختلفة لوادي ظهر المطل عليه الدار

هي أعلى مكان بالصخرة حيث قام اليمنيون الأوائل ببناء الأدوار السفلى نحتا بالصخرة قبل أن يرتفع البناء فوق تلك الحجرة. وفي داخل الصخرة توجد بئر عتيقة يصل عمقها إلى سبعين متر ويمكن جلب الماء منها من كل حجرات القصر عبر فتحات مخصصة منحوتة بالصخرة في الطوابق السفلى أو في الحجر في الطوابق العليا وهذا من عجائب بناء القصر.

لقطتان: علوية وسفلية للبئر التاريخية المحفورة في عمق الصخرة عشرات الأمتار لتخدم كل غرف القصر

صور مقربة التقطتها لدار الحجر من زاويا مختلفة

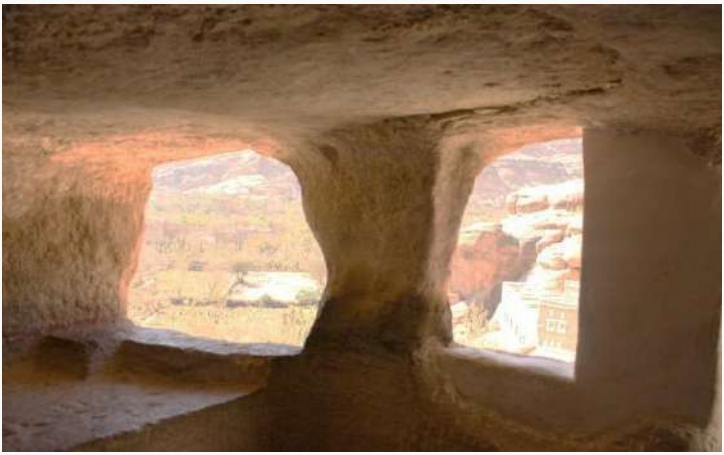

بعض الصور لغرف القصر ويظهر بها المطبخ المنحوت في أصل الصخرة وغرفة أخرى قيل أنها للتحنيط وسقفها من الصخرة التي يقع عليها الدار وكذلك نوافذها محفورة من الصخرة التي بني عليها القصر نفسه

وفي خارج القصر يقع "الشذران" وهو مبنى مستقل في الجهة الغربية محاط بسياج خشبي وتتوسطه ثلاث نوافير يصب منها الماء, كما توجد إلى جانبه ملحقات القصر كالمطبخ وغرف الحراسة.

بشكل عام المكان كما هو في كل الأماكن السياحية في "اليمن", يحتاج إلى خدمات كثيرة كالفنادق والمطاعم وبنية تحتية وأدلاء على قدر عال من المعرفة والثقافة والإلمام بالتاريخ, شريطة أن تكون بتذاكر رسمية ولا يترك الأمر للمفاصلة والشجار، المكان بشكل عام منعزل جدا وهو في الشتاء يبدو أكثر عزلة مع قلة الأمطار والمزروعات في الوادي، وبالتالي لا يستطيع الزائر أن يجلس في المكان أكثر من ساعتين إن كان يملك الصبر والقدرة على البقاء وسط هذه الظروف لدرجة انعدام بقالة لشراء المياه, وكان من المفترض أن يصبح المكان مزدحما بالزوار والمطاعم والفنادق والاستراحات في الوادي بشكل يتناسب مع تاريخية المكان من حيث الديكور والشكل والرقي, فباستثناء سائحين أوروبيين عرفت منهما عند السؤال بأنهما من ألمانيا وكان يبدو عليهما الخوف والترقب حيث قاما بجولة سريعة وانصرفا دون أن يتحدثا مع أحد وهذا من أسباب حديثي عن سوء المكان خدماتيا وسياحيا.

جانب من الشذروان الخارجى ومحلقاته

سائحان ألمانيان ينصرفان بعد جولة سريعة خاطفة في القصر

وقد شاهدت في بعض الدول أماكن أقل أهمية ومصطنعة تحظى ببنية تحتية راقية وشركات تقوم بعمل رحلات جماعية عبر الحافلات والطيران مع مرشدين بارعين ومطاعم ومقاهي حديثة وفنادق صغيرة أو حتى مخيمات في العراء للبقاء والتمتع بجو المنطقة، وكل هذا بسعر زهيد للغاية لأن التكلفة تقل مع عدد المشتركين الكبير، ولهذا علينا أن نتحسر أن يكون لموقع مثل هذا كل مقومات السياحة التاريخية, وقبلة عشاق التاريخ وهو خارج نطاق التاريخ.

نظرة أخرى على بوابة القصر والوداع

أنا من أصل آذري

أنا من أصل آذري

هكذا حدثني "محمد" الرجل الإيراني بعد أن جلس في المقعد القطاري أمامي ونحن متجهون إلى مدينة "جوانزو", وحقيقة لم يخبرني مباشرة بأصوله الآذرية, وإنما جاء عقب تساؤلاتي العديدة ونحن نتحدث, كان جوابه بعد آخرهذه الأسئلة مباشرة حول منطقته في إيران.

ولم تنقطع تساؤلاتي فسألته سؤالا آخرا أصبح مفتاحا لحديثنا الطويل الذي استمعت به جدا, كان سؤالا غبيا في باديء الأمر, لكنه أثار الرجل وجعله يتحمس للشرح المستفيض.

كان سؤالي:

ــ هل أنت شيعي؟

للتو كان القطار قد خرج من مدينة "شنزن" التي كنت بها متجها إلى مدينتي التي أقيم بها, وبعد مضى ربع ساعة من السير, كانت عربة القطار شبه

فارغة وكنت وحدي في ستة مقاعد متقابلة, ثلاث منها في كل جهة وبينها طاولتان صغيرتان مثبتتان في أرضية القطار, جلست على أحدها حسب الرقم الممنوح لي على تذكرة القطار من المحطة, كانت مخصصة للرحلات الجماعية المحجوزة, وبينما كنت مكتفيا بالصمت ومشاهدة القرى بحقولها ومزارع أسماكها والمنازل التي يمر عليها القطار, شاهدت أحدهم مقبلا ذو ملامح سندية للوهلة الأولى نحيل الجسد بشعر ناعم, قام بالجلوس في آخر كرسي من الكراسي المقابلة لي وكنت أنظر إليه بطرف عينيَّ حيث كان القطار فارغا. لكنه ربما كان يبحث عن مرافق للطريق يتبادل معه الأحاديث بدلا من السكان المحليين, حيث كان واضحا أني الأجنبي الوحيد رفقته في العربة.

ــ هل أنت إيطالي؟!

سألني فجأة بهذا السؤال فابتسمت وأنا أشير إلى العلم الإيطالي في قميصي الأسود, وأنا أخبره بجنسيتي سائلا إياه عن جنسيته, فأجابني:

ــ إيراني..

ــ هل أنت شيعي؟

لاحظت على ملامحه بعض الإمتعاض لبرهة من الوقت قبل أن يتحدث مطولا عن عدم جدوى مثل هذا التساؤل الذي يريد الفرس إثارته بين المسلمين بسياساتهم وعنصريتهم.

جانب من محطة القطار في مدينة شنزن

اعتذرت منه عن سؤالي إحساسا مني بأنه يملك الكثير لديه ليقوله لي, انفرجت أساريره مستطردا:

ــ بالنسبة إلى سؤالك, فنعم أنا شيعي لكني لست فارسي, فالفرس يشكلون 30% تقريبا من عدد سكان "إيران" فقط. ولكنهم وحدهم هم المسيطرون على كامل البلاد, فالأطراف كلها ليست فارسية, وهم وحدهم في الوسط يملكون كل شيء ويحكمون كل شيء.

ولايريدون حتى لبقية الشيعة أن يحكموا معهم , فنحن على الحدود الآذرية نتعرض للكثير من المضايقات والتهميشات رغم أننا شيعة. فلا قنوات تتحدث بلغتنا مطلقا, رغم أن هناك قناة رسمية يفترض أن تكون بلغتنا الآذرية, لكنها تتحدث بما يقارب 95% بالفارسية ويدعون أنها آذرية. و أنهم يضطرون لتركيب لواقط فضائية لجلب قنوات التلفزيون من "آذربيجان" التي تجمعنا معهم اللغة والمذهب والعرقية, وهذه القنوات الأذربيجانية تتحدث بلغتنا ومع هذا يقتحمون علينا بيوتنا ويقومون بتحطيمها.

سألته حينها على نحو مباشر قائلا:

ــ هل أنت من تبريز؟

ــ نعم أنا من تبريز, هل تعرفها

ــ أعرف أنها كانت أكبر مدينة في العالم لفترة من فترات التاريخ ــ أجل نحن نتنمي إلى العرق التركي الطوراني تحديدا القومية الأذرية, ولدينا لغتنا وتاريخنا المنفصل عن "الفرس" وإيران بشكل عام, ولم نكن شيعة حتى القرن السادس عشر, حينما قام "إسماعيل الصفوي" بضم إقليمنا وفرض التشيع بالقوة. وقتل عشرات الآلاف, وهو ما أدى إلى هروب الكثير من السكان والعلماء للدولة العثمانية, التي خاضت حروبا شرسة مع النظام الصفوي حول تبريز.

وهنا أحببت أن أتحدث عن مشكلة "الأحواز العربية", ومايتعرضون له من ظلم وبطش لأنهم عرب شيعة وسنة, أيدني بهذا ولكنه ــ كما بدا لي ــ لم يرد أن يحصر الأمر بين شيعة وسنة بقدر ماهو بين فرس وآخرين, وأصررت على التأكيد له على عروبة الأحواز وتاريخها العريق منذ ما قبل "الفرس", أنفسهم عبر حضارات "عيلام وميسان" وأن هناك بعض المؤرخين يرجعون أصول السومريين غير الساميين إلى نفس المنطقة. ثم انزاحوا إلى جنوب العراق.

لم أخبره بطبيعة الحال أن لي ثلاث قصائد باللغة العربية الفصحى عن "الأحواز" وعروبتها ونضال شعبها الأبي, وقد قام الفنان والرسام "علي زويدات" وهو صديق أحوازي يعيش في أوروبا بتلحينها وغنائها وهي موجودة في اليوتيوب ومواقع التواصل الإجتماعي.

وللأمانة كان "محمد" متفهما وغير معترض على حديثي عن تاريخ الأحواز فقال موجها سهام حديثه لمن يحكمون باسم الفرس

ــ يريدون استعادة ملكهم الذي ضاع بأي طريقة حتى لو أبادوا نصف المسلمين, فالفرس لايريدون أي خير لغيرهم, فكل الأعراق والمذاهب الإسلامية مقيدة في "إيران", ومحصورة حتى الشيعية من غير الفرس, واليهود والزاردشتية وغيرها لهم مطلق الحرية داخل إيران في ممارسة عقائدهم.

أبديت تفهمي لما قاله, فسألته

ــ كيف أصبح وضع مدينتكم في ظل سيطرة نظام الملالي الإيراني؟

ــ كنا أكبر مدينة في إيران قبل قرن وقبل أن يتولى الخميني الحكم كانت تبريز هي ثاني أكبر مدينة في البلاد. واليوم أصبحت مدينتنا هي رابع أكبر مدينة بعد أن تفوقت عليها مدن مثل "أصفهان" "ومشهد" الفارسيتان, وهذا يوضح كل شيء وكيف يحكم الفرس البلاد.

كنت مستمتعا بكلامه وهو يحدثني فلربما تكون هذه أول مرة أسمع مثل هذا الكلام, خصوصا حين قال:

ـ أن إيران تظهر بأنها ترغب بنشر الإسلام على مذهب التشيع لآل البيت, وتقوية أتباع هذا المذهب في كل مكان زمان , لكنها كما يبدو لا تريد هذا في إيران, أو أنها ترغب فقط بهذا من أجل السياسة و إثارة المشاكل في كل مكان, وهذه التصرفات الشيطانية لهذا النظام تجعل المسلمين في تناحر ويعطل بناء مجتمعات إسلامية بناءة منتجة, فطوال فترة الصراع العراقي ـ الإيراني كانت كل مقدرات تبريز والإقليم الأذري معطلة لصالح تمويل الجيش وبنائه على حسابنا, وعلى هذا قس كل الصراعات وتحشيد الناس باسم آل البيت والدين على حساب قوتهم ومعيشتهم وحياتهم, ولكن هذا لن يطول كثيرا إذا سرعان ما سيكتشف الناس حقيقة هؤلاء.

وصل القطار إلى محطته الأخيرة, فنهضت لأخذ حقيبتي بعد توديع مرافقي, ومازلت أتذكر محمدا منذ ذلك الوقت, بملامحه و كلماته الجميلة الواثقة وحرصه الشديد على رقي المسلمين و تطورهم, وبالطبع لم أقم بالتقاط أي صورة له, ولن يسمح بذلك بعد كل الذي قاله من أحاديث ضد النظام الإيراني الدموي, شكرا لك أيها الآذري أينما كنت وسرت.

دردشة رمضانية على ضفاف نهر اللؤلؤ

دردشة رمضانية على ضفاف نهر اللؤلؤ

مشهد ليلي من جوانزو على نهر اللؤلؤ الساحر

نهر اللؤلؤ يمر من منتصف مدينة جوانزو ويمضي ليصب في بحر الصين الجنوبي وهناك يشكل دلتا عملاقة تقع هونغ كونغ في جانبها الأيسر وماكاو في الأيمن, من هذه الدلتا دخلت سفن التجار اليمنيين والعرب ونقلوا الإسلام للمدينة ومازال أبناء المسلمين الأوائل حتى الآن في أحد أحياء المدينة الشهيرة بمسجد الحنين إلى النبي أو هواشينغ أو المنارة، ومن هذه الدلتا

جاء الرحالة المغربي الشهير "ابن بطوطة" وزار المدينة في مراحلها المبكرة للظهور كمدينة عملاقة.

صورة قمت بالتقاطها سابقا لسفينة شراعية صينية في هونغ

من هذه الدلتا دخلت سفن الأوروبيين عبر نهر اللؤلؤ لاحتلال مدينة جوانزو في حربي الأفيون الأولى والثانية اللتان بدأتا في 1840 م ، مشكلة من

سفن بريطانية وفرنسا في المقام الأول وكذلك بمشاركة سفن بلجيكية وهولندية ودانماركية.

اجتمعنا في مطعم يملكه صديق لي من "الأردن" برفقة صديق آخر من "المغرب" يرافقه صديقه البلجيكي "مارك" والجزائري "أحمد", كنت أنا وصديقي المغربي قد عرفنا بالصدفة أن صديقنا "محمد" قد عاود فتح مطعمه الصغير للبيتزا والوجبات بعد إغلاق طويل بأمر الحكومة الصينية في بداية جائحة كورونا، فسلمنا عليه وأخبرناه بأننا سنأتي في اليوم التالي إن شاء الله، وفي اليوم التالي فوجئنا به وقد جهز صحنا كبيرا مليئا بالأرز على الطريقة الأفغانية مع الدجاج, فقد كان سعيدا بافتتاح المطعم مجددا بعد شهور من الإغلاق وكذلك سعادته بمجيئنا فكانت الوجبة مجانية بالكامل وهي ليست من الأصناف التي يصنعها في مطعمه المخصص للبيتزا وبعض الوجبات السريعة، كانت أجمل وجبة تناولناها في رمضان بسبب طول فترة الحظر, ومنع الأجانب من التحرك بحرية منذ بداية الجائحة بسبب مشكلة افتعلها أفريقي لممرضة صينية، كان قد كرر المفاجأة بعد يومين بصحن برياني دون أن يسمح لنا بالدفع أيضا ، فوجبات الأرز بشكل عام ليست من

ضمن قوائم الطعام لديه, وكان هناك بعض الصينييون الذين يحبون تجربة أكلات مختلفة يجلسون إلى طاولة أخرى بجوارنا وهم يلتقطون بعض الصور للوجبات. وكان قد أخبرنا قبل بضعة أيام أن هناك شخص جزائري يقيم وحيدا في فندق مجاور وأنه جاء للعلاج من السرطان وقد أصبح نحيلا جدا بسبب عدم تناوله للطعام ، أخبرناه أن يأخذ رقم هاتفه إن جاء إليه أو يطلب منه الجلوس معنا وحينها ستنفتح شهيته للأكل, وسنقوم بمساعدته طالما كان وحيدا, خاصة وأنه مقيم في فندق وكل المطاعم في المنطقة مغلقة , وكنا نخشى أن السبل قد تقطعت به ولا يملك المال أثناء إغلاق المطارات العالمية وتوقف رحلات الطيران من وإلى "الصين", فأحببنا أن نساعده بقدر الإمكان والمتوفر.

جاء الجزائري وكان كبيرا في السن, ويبدو عليه الإرهاق والوهن مع شاب يرافقه, وبعد سؤاله عن قصته وأحواله, أخبرنا بأنه جاء للصين للعلاج من السرطان الحميد في عنقه وجزء من كتفه, وبأنه تجاوز كل المراحل ولَم يتبق له سوى بعض الأدوية، لكنه مرهق ويشعر بالملل لوحده, ، وأن هذا الشاب أيضا من بلده "الجزائر" يعمل ويقيم في "الصين". لذا فقد اطمأنينا من وضعه المادي وظروفه, فأخبرناه أن يأتي يوميا ويجلس معنا وسوف تنتفتح

جانب من المطاعم العربية في مدينة جوانزو

شهيته مع الوقت، بعد مرور أربعة أيام أصبح يأكل أكثر وبدا منطلقا ويبتسم بالحديث وهذا هو ماكنا نريده لمسافر تقطعت به السبل في مرضه ووحدته, أما البلجيكي "مارك" فكان متحمسا بعد حل مشكلته مع أهل زوجته التي كان

قد أخبرني عنها في وقت سابق وكان ويسرف بالحديث عن المشكلة منطلقا بثرثرة بالغة, حيث أنه متزوج من صينية ولديه منها ولد يدرس في الجامعة في " وينشستر", وهو مقيم هنا في "الصين" بينما هي مقيمة في "بلجيكا", وقد تعجبت لهذه المفارقة العجيبة بينما يسرد على مسامعي بقية المشكلة حيث أنه وزوجته في حكم المنفصلين واقعيا, وتصر على أن يسكن أخوها وزوجته في الشقة. وهذا هو سبب مشكلته لأنه مجبر على هذا الوضع بينما سلوكياتهم المعيشية مختلفة وكذلك وجباتهم التي يطبخونها وينامون في غرفة المعيشة, كما أنه يريد محام جيد لرفع قضية بطردهم فأعطيته رقم محامية صينية أعرفها، وبسبب ثرثرته البالغة حول المشكلة الأسرية كنت أدفعه لتغيير الحديث , بحكايات عن أوروبا وعن التاريخ حتى أستفيد على الأقل بدلا من إدخالي بمشاكله العائلية.

فسألته عن مشاركة "بلجيكا" بسفن حربية لاحتلال "جوانزو", حيث نجتمع بها غير بعيد من نهر اللؤلؤ التي عبرت فوقه تلك السفن إبان حروب الأفيون الأولى والثانية وإن كان قد بدت عليه أمارات التهرب لكنه اعترف بالأخير بذلك الدور, كان يحدثني عن جامعة "وينشستر" العريقة التي يدرس بها ولده وهي في جنوب "بريطانيا", فأخبرته من باب تغيير الحديث نحو

التاريخ أن قبائل الأنجلز والساكسون نزحت من ألمانيا إلى الجزيرة فأصبحوا إنجليزا, وصارت لغتهم تعرف باللغة الإنجلوساكسونية ، ويبدو أني لمست جانبا مهما ــ وهو المطلوب ــ فانطلق يخبرني أن قبيلة بلكا ــ ربما تكون تسميتها بالعربية بيلجي ــ، هاجرت من بلاد الغال (مايعرف الآن بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ أو الأراضي المنخفضة) واستوطنت في المنطقة حول "وينسشستر" لهذه فهي مصادفة جميلة أن يدرس ولده هناك, وعندما عاد ليحدثني مجددا عن حياته الشخصية بشكل صارخ، استغليت أنه قطع حديثه وهو يشاهد التلفزيون في المطعم حيث كانت إم بي سي تو تعرض فيلما عن دراكولا ، فقلت له : شخصية دراكيولا حقيقية في أوروبا وهي ليست بعيدة عنكم في بلجيكا, فانطلق يحدثني عن الكونت الذي قاوم الأتراك وكان يضع خصومه على الخازوق في إحدى النواحي بين رومانيا وبلغاريا.

وهكذا كنت أفتح له مواضيع تاريخية عن أوروبا في كل مرة, لأستغل ثرثرته البالغة, فأخبرته أني قرأت اليوم عن "كريستوفر كولومبس" فانطلق يحدثني عنه وعن جذوره وكان لا يعلم أنه رحل إلى "البرتغال" أولا قبل "إسبانيا" من "جنوة" في "إيطاليا", حيث وجد الدعم فانطلق يحدثني عن

رحلاته وعن جبروته وسفكه للدماء وللأمانة فمارك شخص مثقف ومطلع بشكل كبير على تاريخهم الأوروبي, وكان معجبا أن شابا عربيا مطلع على التاريخ الغربي, وإن كانت تواجهني مشكلة الأسماء والمناطق والدول حيث أن قراءاتي كانت ولا زالت في معظمها باللغة العربية, وكانت الأسماء التاريخية تخضع للتعريب وتغيير أسمائها بشكل مستمر, كما أن أنجليزيتي ليست قوية بالمرة, لكني أفهم حديثه على كل حال, وأحاول نطق الأسماء وتقريبها فيلتقط مني البداية لينطلق متحدثا بلا توقف , وقد علمت منه في وقت لاحق أنه قام باستغلال فرصة خلو المنزل في يوم سابقا من شقيق زوجته وأسرته لتغيير مفتاح الشقة, وعندما علموا بالأمر حدثت بينهم مشكلة استدعت تدخل الشرطة وبعد شد وجذب وقفت الشرطة إلى جانبه بما أنه صاحب الشقة, ولايحق لشقيق زوجته السكن بها, ولكن عليه أن يمهلهم بعض الوقت لأخذ أغراضهم وترتيب سكن بديل من جانب إنساني وهو ماحدث.

قد نلتقي مجددا ليواصل ثرثرته، ولأستمر أنا بجعله يتحدث حول شيء أحبه وهو التاريخ.

هونغ كونغ – شنزن باتجاه واحد

هونغ كونغ – شنزن باتجاه واحد

كنت في زيارة عمل لم يتم كما هو مخطط له هذه المرة في مدينة "هونغ كونغ", وهي المرة الوحيدة وسط عشرات المرات التي زرت بها المدينة كانت للعمل، ومنذ أول أول يوم في الزيارة الأولى حتى تلك المرة كانت منطقة "كولون" هي مستقري, وتحديدا في شارع "تاثان" لعدة اعتبارات أهمها رخص الفنادق هناك, إذا صحت تسميتها بالفنادق والتي كانت عبارة عن بنسيونات في عمارات سكنية قديمة, لكنها بنفس الوقت تجارية تضم مئات الفنادق والمطاعم والمكاتب والشقق وحتى مغاسل الملابس.

ما كان يميز تلك الفنادق الصغيرة أن الشقة الواحدة تقسم إلى عشرات الغرف الضيقة, تضم سريرا بالغ الصغر وحماما بالكاد يتسع لنفر واحد، كنت أصلي فوق السرير لعدم وجود مساحة في أرضية الحجرة،

شارع ناثان رود في كولون بهونغ كونغ ومنظر علوي من نافذة حجرتي

لكنها بشكل عام كانت لحظات جميلة لتجربة أوقات جديد ومختلفة, خصوصا المطاعم الحلال التي يديرها هنود أو باكستانيون وبعضهم يحمل جنسية "هونغ كونغ" بسبب المولد, لكنهم لا يزالون مرتبطون بثقافات بلدانهم الأصلية، بينما بعضهم مجرد مهاجرون يبحثون عن فرص العمل والثراء في مدينة الثراء والأحلام.

في ذلك الشارع لاحظت جدية أبناء هونغ كونغ وهم ذاهبون إلى أعمالهم لدرجة أن تخيلتهم كروبوتات تسير بجمود دون أي ملامح تظهر عليهم خصوصا مع خطوات سيرهم السريعة جدا حتى لشاب مثلي معروف بين

جانب من غرف البنسيونات في زيارات متعددة

أصدقائه بخطواته السريعة عند المشي، كل تلك العوامل جعلتني أشعر بالغربة بشكل فعلي وأنا لوحدي في تلك المدينة لأيام، وهذه الحالة دفعتني لأن أكتب هذه الأبيات من وحي اللحظة:

بعضُ الهمومِ لبعضها استشفاءٌ
و تعوّدُ الأحزان فيه عزاءٌ

والقلب يألفُ ماتعودهُ على
أملٍ بيومٍ تخفق الأضواءُ

وتراكم الأحزانِ ليس بقاتلي
لكنّ قلبي كله أشلاءٌ

وحدي بلا عينيكِ أرحل دونما
وطنٍ , فكل مشاهدي سوداءُ

ماذا عسايَ بغربتي أحكي ؟!, ومن
يُصغي لما يهذي به الغرباءُ

وسوايَ من يصغي إليِّ , و ليس من
أحدٍ يعي .. أن الرحيل بلاءٌ

حولي زحامٌ لا أرى وجهًا به
فيه امتدادٌ زائف وفضاءٌ

هذا أنا المجني عليه , لأنني
جَسدٌ ضعيفٌ هدّه الإنضاءُ

وبحثتُ في نفسي نهاية قصتي
فأعودُ يأسرني بك الإبداءُ

مدخل العمارتين اللتين تحويان الفنادق والمطاعم

منطقة "كولون" في هونغ كونغ هي منطقة شعبية بامتياز بعمارات إسمنتية باهتة اللون, تحمل كثافة سكنية ضخمة على عكس جزيرة "هونغ كونغ", أو السنترال التي تحمل نمط العصروثقافة "هونغ كونغ" الثرية والنمطية بناطحات سحابها وشركاتها عابرة القارات، تمتلك كولون منطقة سكنية كبيرة بعشرات الشوارع المتداخلة والمتفرعة من شارع "ناثان رود"، وفي مواسم السياحة تمتليء المنطقة بحكم أسعارها المنخفضة نسبيا بالسياح خصوصا من أوروبا من الشباب الذي نتزاحم نحن وهم في البحث عن حجرة فارغة وسط أكوام البنسيونات, خصوصا في عمارتي "ميرادور

منشن" "وتشنغ كن مينشن" المجاورة لها, والأخيرة تحوي الكثير من المطاعم الهندي والباكستانية من إقليم "البنجاب", وقد عرفت الكثير من أصناف الطعام الهندي المختلفة كالبرياني مع الدجاج أو اللحم مع بيضة مسلوقة، أو دجاج ماسالا وسمك تيكا، لكن أفضلها بالنسبة لي هو مطعم "بسم الله كباب" في الطابق الثاني من مبنى "تشينغ كن مينشن" الذي يقدم الشاورما وبعض المشاوي الخفيفة مع البطاطس والخبز. ولن أنسى الشاهي الحليب الذي يقدمه الجميع أو مشروب "اللاسي" الذي نسميه في مدينة "عدن" بالثريب وهو مخفوق الزبادي بالحليب والسكر, ويقدم باردا لكنهم في هونغ كونغ يقدمونه أيضا مع الملح، ومطعم "بسم الله" يديره أشقاء مع الكثير من العمال رغم أن المطعم نفسه بدون طاولات سوى تلك التي في ممرات المبنى بجوار المطعم وقد شاهدت صورا معلقة لبعض مشاهير هونغ كونغ من ممثلين ومطربين زاروا المطعم رغم أنه يعتبر شعبيا، كما أن أحد المطاعم يقدم خبز الساخن مع الشاهي الحليب.

جانب من إحدى العمارات من الداخل وهي تضم الفنادق والمطاعم

في الليل يصبح شارع "تاثان رود" ممشى ليلي ممتليء بالناس الذين يحبون التسوق المسائي من السياح وأبناء المدينة, وتناول العشاء حتى أن السيارات بالكاد تستطيع السير لولا جودة التنظيم, والتزام الجميع بتعاليم المرور واتباع الأنظمة بدقة شديدة دون أن تلاحظ انتشار رجال المرور أو الشرطة سوى في حالات جولات روتينية.

سيطرت "بريطانيا" على المنطقة التي تعرف اليوم باسم "هونغ كونغ" في عام 1839م, رفض الإمبراطور آنذاك مقترحات لتقنين الأفيون وفرض ضرائب عليه, وأصدر أمرا بالقضاء على تجارة الأفيون وإيقاف التجارة الخارجية، مما أدى إلى رد عسكري بريطاني بما عرف بحرب الأفيون الأولى. استسلمت أسرة "تشينغ" في وقت مبكر من الحرب وتنازلت عن جزيرة "هونغ كونغ" في اتفاقية "تشوينبي". بدأت القوات البريطانية في السيطرة على "هونغ كونغ" بعد وقت قصير من توقيع الاتفاقية عام 1841م، وظلت تحت سيطرة "بريطانيا" حتى عام 1997م, حيث استعادت "جمهورية الصين الشعبية" المدينة تحت سياسة "بلد واحد ونظامان".

جوانب من منطقة كولون يبين التمازج بين المباني العصرية والأبنية القديمة

كانت "هونغ كونغ" منطقة ذات كثافة سكانية منخفضة من قرى الزراعة وصيد الأسماك، فأصبحت المنطقة واحدة من أهم المراكز المالية والموانئ التجارية في العالم. وهي عاشر أكبر مصدر في العالم وتاسع أكبر مستورد. تتمتع المدينة باقتصاد سوق يتميز بالتركيز على الخدمات والضرائب المنخفضة والتجارة الحرة. عملتها دولار "هونج كونج" هي ثامن أكثر العملات تداولاً في العالم. وهي موطن لثالث أكبر عدد من المليارديرات في أي مدينة في العالم، وثاني أكبر عدد من أصحاب المليارات في أي مدينة في آسيا، وأكبر تجمع للأفراد ذوي الثروات الفائقة في أي مدينة في العالم. على الرغم من أن المدينة بها أحد أعلى معدلات دخل الفرد في العالم ، إلا أن هناك تفاوتًا حادًا في الدخل بين السكان. وعلى وجه الخصوص تم بناء

المساكن في "هونغ كونغ" لتواجه نقصًا مزمنًا ومستمرًا. تعد أحجام المنازل وطريقة البناء المدمجة بسبب الكثافة السكانية واحدة من أغلى المدن في ارتفاع أسعار السكن، وقد شاهدت في "كولون" هذا النظام حيث تحتوي العمارة الواحدة على مئات الشقق الصغيرة بارتفاعات طوابق ليست كبيرة حيث بالكاد تصل إلى عشرين طابقا ربما لوجود المطار قديما بالقرب من هذه المنطقة، بالإضافة إلى تأخر بريطانيا بتنمية منطقة "كولون" على عكس المنطقة المركزية في "هونغ كونغ", وهي المجاورة لها ولطالما كنت أسير مشيا على الأقدام من الفندق إلى منطقة ممشى الساحل المواجه لهونغ كونغ حيث يتواجد آلاف الأشخاص للتنزه والتقاط الصور أو أخذ جولة بالعبارة من كولون إلى جزيرة "هونغ كونغ" والعودة بنصف ساعة وهو ممشى أنيق وراقي جدا ويوجد به بعض المباني والمتاحف, كما تحوي فنارا أنيقا.

مناظر مختلفة من كولون باتجاه جزيرة هونغ كونغ أو السنترال

في أحد الأيام قررت زيارة المركز الإسلامي لآداء الصلاة وهو لا يبعد كثيرا عن المنطقة، كان بناءا أبيضا جميلا على شارع "ناثان رود" يقع على أطراف حديقة "كولون" المركزية الكبيرة، بعد آداء الصلاة كنت قد شاهدت بعض الهنود الذين قد تعرفت عليهم وهم يتحدثون داخل المسجد فيما بينهم فذهبت للسلام عليهم وعرفوني على شاب آخر, كانت بشرته أفتح منهم وعرفت منهم أنه بريطاني من أصول هندية– باكستانية من منطقة "كشمير" من جهة جده واسمه "عمير"، جاء إلى "هونغ كونغ" لحضور معرض تجاري دولي للأجهزة الإلكترونية, لكنه وجد أن الأسعار غالية جدا، فأخبرته بأن يذهب إلى الصين فمدينة شنزن الملاصقة لهونغ كونغ هي مدينة الإلكترونيات وتضم آلاف المصانع التي تصدر كل احتياجات العالم من كل ماهو إلكتروني وهي لا تبعد أكثر من نصف ساعة بالقطار مع كل إجراءات الجوازات، لكنه أخبرني بأنه لم يكن يعرف هذه المعلومة كما أنه متخوف من الذهاب إلى الصين، فعرضت عليه مساعدتي إذا كان جادا دون مقابل شريطة أن ينتظرني ليومين حتى أنهي ارتباطاتي في "هونغ كونغ"، وفي حال شرائه لأي منتجات فسأقوم بشحنها له وهذا هو عملي ودون هذا لن آخذ منه أي مبلغ.

جانب من المركز الإسلامي في كولون بجامعه الأبيض الجميل

خرجنا أنا وهو من المسجد حيث عزمته على الشاهي الحليب, وهو كبريطاني يحبه ككل البريطانيين الذين جعلوا تسميته بالشاي الإنجليزي منتشرة في بلدان كثيرة رغم أنه هندي المولد والشهرة والانتشار، كان عمير شابا أبيض البشرة بشعر بني ناعم، للوهلة الأولى ستعرف بأصوله الهندية رغم انقطاع الصلة ببلد أجداده كان نحيل الجسم في منتصف العشرينات من عمره وكنت أكبر منه ببضع سنوات حينها, كما أنه يتمتع بدماثة أخلاق ورصانة شديدة قد يكون اكتسبها من بيئته الإنجليزية المعروفة ببرود أهلها أضف إلى ذلك ذكائه الحاد. عرفت منه أنه يسكن في أحد الفنادق الغالية جدا حيث قام بالحجز قبل سفره، كان يدفع مايعادل خمسمائة دولار أمريكي وكان يشتكي من انقطاع الفندق في منطقة بعيدة عن المركز وعدم وجود طعام حلال, لذا فقد أقنعته بأن يخرج من الفندق ويأتي للسكن معي حيث أني أدفع أقل من عشر القيمة التي يدفعها هو, كما أن المطاعم الحلال كلها تقع في نفس المبنى الذي يقع به الفندق, وكل الذي سنفعله أننا سنغير الحجرة إلى أخرى بسريرين إذا لم يكن لديه مانع ولن يحتاج لدفع أي مبلغ, وهو ما وافق عليه، فذهبنا إلى فندقه ذي الخمس نجوم وأحضرنا حقائبه إلى الفندق الذي أسكن به وكانت تملكه إندونيسية من أصل صيني يدعوها الجميع "ماما", وهو من أنظف البنسيونات هناك وطول سبع سنوات كنت أسكن في فندقها وقد شاهدتها وهي تتوسع حيث

قامت بأخذ شقق أخرى في نفس الطابق وطوابق أخرى نظرا لازدياد زبائنها فلا يلزم هنا أن تكون حجرات فندقها متجاورة في نفس المكان.

بعد انتهاء عملي حزمنا حقائبنا أنا "وعمير" وتوجهنا إلى مدينة "شنزن"، وقد تعمدت أن أصطحبه معي متخذا أرخص الطرق حيث استقلينا المترو إلى آخر محطة مع الحدود في البر الصيني, ثم سرنا على الأقدام متجاوزين إجراءات الختم في الجوازات الهونغ كونغية قبل أن نتجه إلى الجسر الفاصل بين المدينتين الذي يقع على مجرى مائي صغير ربما شقوه في فترات التقسيم والسيطرة البريطانية.

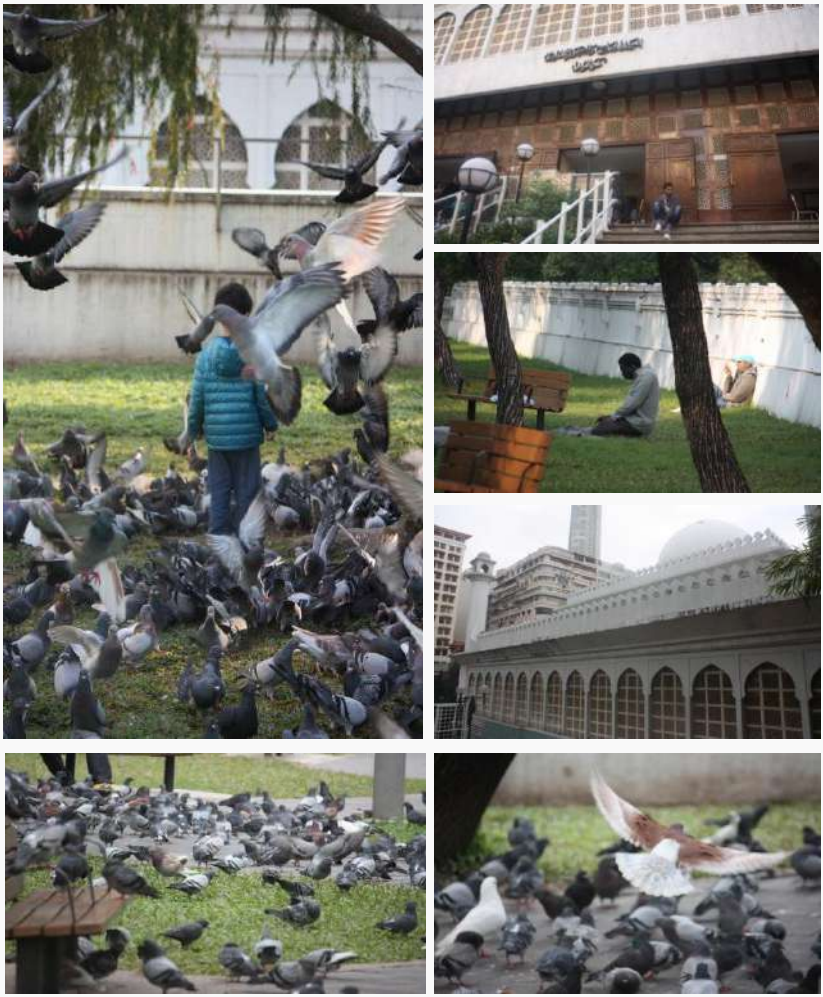

جوانب من حديقة كولون الشاسعة وبعض جهات أخرى من المسجد الملاصق لها

صورة التقطها من منتصف الجسر الذي يفصل بين هونغ كونغ وشنزن

في منتصف الجسر قلت لعمير (مرحبا بك شنزن والصين)، كان هذا الجسر هو واحدة من علامات الصدمة الحضارية بالنسبة لي حيث كنت قد شاهدت في التسعينات فيلما للفنان الصيني – هونغ كونغي "جيت لي" بعنوان الحارس الشخصي "بودي غارد". وفي نهاية الفيلم تقوم هونغ كونغ بتسليم الصين لجثمانه على جسر متواضع ليلا مع أبراج حراسة مدججة بالسلاح محيطة بهم، فظلت هذه الصورة النمطية التي تصنعها السينما في عقولنا مسيطرة على عقلي حتى رأيت شيئا مختلفا، مع آلاف المسافرين في الجهتين يكاد يخلو المكان من رجال الشرطة ماعدا في بعض الأماكن، والجميع يسير بانتظام وترتيب.

بعد إنهاء إجراءات الدخول إلى الصين كنا فعليا في مدينة شنزن فمحطة القطار تقع مباشرة في منطقة مأهولة بالسكان وسيارة الأجرة ومحطة المترو.. ها نحن في شنزن واحدة من أهم مدن الصين وأحدثها، والحداثة هنا ليست في تطور المدينة ورقيها الاقتصادي بل لأنها قبل أربعين عاما فقط لم تكن موجودة على الأطلاق ولهذا قصة يجب المرور عليها تحكي عن عظمة العقلية الصينية التي آمنت بنفسها فانطلقت نحو الرقي وفق تقاليدها الخاصة المستمدة من إرثها وتاريخها وثقافتها الخاصة, فاستعنت كما هي عادتي دائما بسائق صيني يعرف المنطقة وأن يكون مرافقا لنا مقابل أجرة

يومية اتفقنا عليها, وفي الحقيقة أفادنا السائق "توم" في التحرك يوميا من فندقنا في شنزن حتى المصانع التي تقع في منطقة باوان وهي مناطق واسعة بل إن المصانع كانت متباعدة بينها بشكل كبير جدا وبعضها يقع في مناطق حديثة طور الإنشاء والعمران ولا تتواجد بها سيارات الأجرة, كما أن توم أفادنا في شرح التطور الصيني والكثير من المعلومات التي لم نكن لنعرفها من تلقاء أنفسها, وبعض الأحاديث والنقاشات مع توم وعمير قمت بتلخيصها فيما سيأتي من فقرات.

المبنى الحدودي في شنزن باتجاه هونغ كونغ ومنه تبدأ مدينة شنزن مباشرة

شنزن.. أعجوبة العجائب الصينية

شنزن.. أعجوبة العجائب الصينية

كانت المنطقة برمتها عبارة عن قرى صغيرة لبعض الصيادين كانت أكبرها تدعى باوان حتى عام 1979م, حين قام فريق التفتيش المركزي الذي أرسله مجلس الدولة بالتحقيق في قضية إنشاء ميناء للتجارة الخارجية في مقاطعة "باوان", حيث اقترح تحويل مقاطعة "باوان" المجاورة لهونغ كونغ البريطانية "وتشوهاي" المجاورة لمكاو البرتغالية آنذاك إلى قواعد لتصدير السلع، ولم يستغرق الأمر كثيرا من الوقت حتى أقرت الحكومة بإنشاء مدينة "شنزن" كأول منطقة اقتصادية خاصة في الصين ،والتي روج لها الزعيم "دنغ شياو بينغ| كجزء من إصلاحات " الإصلاح والانفتاح " في الصين التي تم وضعها سابقا, وهدفها هو أن تكون أرضية تجريبية لممارسة رأسمالية السوق داخل مجتمع يسترشد بمُثُل "الاشتراكية ذات الخصائص الصينية". والتي بموجبها صاغت "شنزن" سلسلة من السياسات التفضيلية لجذب الاستثمار الأجنبي، بما في ذلك استقلالية الأعمال والضرائب واستخدام الأراضي وإدارة الصرف الأجنبي ومبيعات المنتجات وإدارة الدخول والخروج. من

خلال معالجة المواد الواردة، والتجارة التعويضية ، والمشاريع المشتركة، والعمليات التعاونية، والملكية الفردية، والتأجير، اجتذبت المدينة قدرًا كبيرًا من الاستثمار الأجنبي وساعدت في نشر مفهوم المناطق الاقتصادية الخاصة وتمكينه من التطور السريع، لتصبح المدينة مدينة مستقلة ذات طبيعة اقتصادية مستقلة.

كان البريطاني "عمير" شديد الانبهار بالمدينة وبروعة مبانيها واتساع شوارعها, وقد أخبرني بأنها أفضل من هونغ كونغ والتي كان منبهرا بها سابقا، على العكس من مدن إنجلترا العتيقة وذات الشوارع الضيقة والمباني الياجورية الصغيرة.

جانب صغير من مدينة شنزن

لم يكن البريطاني "عمير" يعلم أن "شنزن" الحالية هي نتاج جهد صيني ومثابرة لا تنتهي وصلت أوجها في فترة التسعينات, حتى أنهم رفعوا شعار "ناطحة سحاب واحدة في اليوم وشارع واحد كل ثلاثة أيام" ، كانت عبارة مشهورة تشير إلى "شنزن" خلال التسعينيات، واليوم يبلغ الناتج المحلي للمدينة 475 مليار دولار أمريكي، نصيب الفرد الواحد أكثر من 27 ألف دولار سنويا في مدينة يتجاوز سكانها 17 مليون نسمة. وفي عام 2021م, تم تصنيف المدينة على أنها المركز المالي الثامن الأكثر تنافسية والأكبر في

العالم والسادس في منطقة "آسيا" و"أوقيانوسيا" بأكملها (بعد شنغهاي وهونغ كونغ وسنغافورة وبكين وطوكيو)، والمرتبة الخامسة عالميا في عدد المليارديرات بين مدن العالم. أما أرقامها في مجال التصنيع فتحتاج إلى كتب عديدة, وبالفعل هناك الكثير من الكتب التي كتبها صينيون وغربيون عن المدينة حيث تضم مئات الآلاف من المصانع الصغيرة والمتوسطة والعالمية وأرقامها في مجال الصناعات التكنولوجية المتطورة تتفوق بها على دول العالم حيث بلغت المرتبة الرابعة على مستوى العالم، وهي أرقام مختصرة لتوضيح حجم المدينة ومدى تأثيرها العالمي، وجميع المصانع في "شنزن" تقع في مدينة "باوان" الملاصقة لها والتي أصبحت مع مرور الوقت مدينة أخرى داخل منطقة "شنزن", وجميعها صناعات مرتبطة بالتكنلوجيا والتقنية والإلكترونيات حتى أصبحت بمثابة "وادي سيلكون" صيني، والحديث عن "باوان" سيحتاج لتفاصيل كثيرة سأذكرها لاحقا.

شنزن مساءا

استقلينا التاكسي من محطة القطار في منطقة "فوتيان" الحدودية مع "هونغ كونغ" باحثين عن فندق وكنت قد عرفت أن هناك فندقا يدعى " فندق المسلم"، كان الفندق يقع في ستة طوابق ويعلو سطحه بناء صغير كمسجد والطابق الثاني منه كان مطعما إسلاميا على الطريقة الصينية في منطقة "شينغجيانغ" الشمالية, وبالنسبة لكلينا فالأمر يكفي وزيادة، فأخذنا حجرة واحدة بسريرين وقد كانت بالنسبة لفنادق "هونغ كونغ" شديدة الاتساع، لذا فقد قررنا أن نبحث عن المصانع التي تهتم بتصنيع المنتجات التي يريدها والتي تقع كما ذكرت سابقا في منطقة "باوان" الصناعية المجاورة لشنزن. وقج كان "عمير" شديد الكرم والتواضع ومحبا للآخرين, وكنا دائما ما

نختلف حول من يدفع لكنه كان يصر بشكل قوي بما أنه صاحب العمل, وبما أني لن أتقاضى أي مقابل منه إلا في حالة الشراء التي قد لا تتم, كما كان "عمير" مثقفا ويمتلك الكثير من المعلومات عن العالم ودوله, فكانت صحبته ممتعة ومثرية لشخص مثلي يحب الاستفسار ومعرفة مايدور في العالم, وقد تحدثت معه حول أصوله وقدوم جده إلى "بريطانيا" وسأذكرها لاحقا, بعد أن أتحدث عن منطقة "باوان".

جوانب من فندق المسلم بشنزن وتظهر بها الغرفة والمسجد والمطعم

قبل الحديث عن باوان علينا أن نعرف كيف أصبحت الصين دولة صناعية، يقال أن الرئيس الصيني "دنغ شياو بينغ" قال:

ـــ سنجعل في كل بيت مصنعا

وبغض النظر عن صحة المقولة من عدمها فإن هذا ما يحدث بالفعل خصوصا في القرى، لكن الوضع تغير مع مرور الوقت وأصبحت تقام المصانع الصغيرة في أماكن أخرى غير البيوت بغض النظر عن حجمها وهو ما يؤكد أسطورية المعجزة الصينية.

في وقت مبكر من الأربعينيات ، بدأ "ماو تسي تونغ" في التأكيد على أهمية تطوير الصناعات، مشيرًا إلى أن التصنيع يجب أن يأخذ أولوية قصوى بالنسبة للصين بعد سقوط الإمبريالية والإقطاعية والرأسمالية البيروقراطية. لقد تصور أن جمهورية الصين الشعبية الوليدة وهي تتحول من دولة ذات اقتصاد زراعي متخلف إلى دولة صناعية متقدمة ذات نظام صناعي مستقل وكامل.

التصنيع المبكر

واجه الصينيون الذين يعيشون تحت حكم أسرة "تشينغ" (1644–1911) مجموعة متنوعة من المشكلات البيئية. أدى النمو السكاني السريع في القرون السابقة إلى نقص الأراضي واستنزاف الموارد الطبيعية بجميع أنواعها، من الحياة البرية إلى وقود الكتلة الحيوية. أدت إزالة الغابات وتآكل التربة إلى تفاقم الفيضانات وقوضت تدريجياً المرونة البيئية للنظم الزراعية في وديان الأنهار الرئيسية في البلاد.

زاد الضعف السياسي والمالي في عهد أسرة "تشينغ" الأمور سوءًا. أدت التمردات الداخلية والهجوم المتكرر للإمبريالية الأجنبية إلى تقليص سلطة البلاط الإمبراطوري في "بكين" وأجبرت المسؤولين الإقليميين على اختيار أفضل السبل لتخصيص عائدات ضريبية محدودة. ترك الإنفاق العسكري الثقيل القليل من المال نسبيًا للتعامل مع الأزمات البيئية الكبرى. في عام 1855م ، فاض النهر الأصفر على ضفافه في خنان وغير مساره ، مما

تسبب في فيضانات مدمرة . من عام 1876م إلى عام 1879م، أدى الجفاف في شمال "الصين" إلى مجاعة أودت بحياة الملايين.

ومع ذلك ، فإن قصة "الصين" في القرن التاسع عشر ليست مجرد قصة تدهور سياسي حتمي وأزمة بيئية. في هذا العصر بدأ القادة الصينيون في وضع بعض الأسس للتنمية الصناعية كثيفة الاستهلاك للطاقة.

ابتداءً من ستينيات القرن التاسع عشر، اكتسب رجال دولة "تشينغ" أدوات جديدة من خارج حدود ا"لصين" لزيادة قوة البلاد. وكان من بين هذه الأدوات العتاد العسكري الأجنبي. اشترى المسؤولون الذخائر المصنعة في الخارج وأقاموا ترسانات وأحواض بناء السفن لبناء المدافع والسفن البحرية التي تعتبر ضرورية لمساعدة قوات تشينغ على هزيمة خصومهم الداخليين والخارجيين.

لكن رجال دولة "تشينغ" نظروا أيضًا إلى تدابير أخرى لزيادة ثروة الصين وقوتها. بدأ البعض في التساؤل عن استخدام البلاد للموارد الطبيعية. في أوائل ستينيات القرن التاسع عشر ، أشار أحد قادة حركة الإصلاح المتنامية في العصر" فنغ جيفن"، إلى أن الأجانب كانوا أكثر مهارة في الاستغلال الكامل لموارد الأرض مثل المنتجات الزراعية والمعادن. وألمح إلى التحكم

الكامل مسؤولي تشينغ يمكنهم إثراء وتمكين الصين من خلال الاستخدام الأفضل للموارد الطبيعية للبلاد. بدأ رجال الدولة في عهد أسرة "تشينغ" على آلات في الحصول على آلات جديدة تعمل بالبخار. أحدثت المحركات البخارية ثورة في النقل، وتم بناء أول بواخر وخطوط سكك حديدية في الصين.

أدى ذلك إلى كشف التوترات المتزايدة بين الصناعيين الأجانب والمصالح المحلية. قام البريطانيون ببناء أول خط سكة حديد في الصين بالقرب من شنغهاي في عام 1876م واستمر تشغيله حتى عام 1877م، عندما دمره الحاكم العام في أسرة "تشينغ". كانت السكك الحديدية من الأمور المتنازع عليها بشدة، وكانت هناك معارضة شديدة لها بين بعض العلماء. لكن مسؤولي "تشينغ" ذوي العقلية الإصلاحية وافقوا على أنهم كانوا أدوات ضرورية للتنمية. بنى مسؤولو "تشينغ" في أجزاء مختلفة من البلاد (مع خبرة هندسية أجنبية) أكثر من 300 ميل من المسار بحلول عام 1894م.

أثناء زيارة لأحد المصانع الصينية العملاقة

قامت النخب الصينية بشراء وتشغيل آلات أخرى لكل شيء من غزل ونسج خيوط القطن والصوف والمنسوجات إلى ضخ المياه من ممرات المناجم. كما اختبروا آلات لحفر قنوات الري وآبار المياه وحرث الحقول الزراعية.

كما هو الحال في الغرب، اعتمدت البنية التحتية الصناعية الناشئة على الطاقة من الفحم. بحلول أواخر القرن التاسع عشر، أصبح موقع واستخراج الفحم لتشغيل هذه الآلات من الاهتمامات المركزية لرجال دولة "تشينغ" الذين رأوا التصنيع وبالتالي الفحم ، كوسيلة لتمكين البلاد. لقد تعاونوا وتنافسوا مع العلماء والفنيين الأجانب لاستخراج الفحم لتغذية المشاريع الصناعية، كما أظهر بحث جديد أجرته "شلين وو". قرب نهاية القرن ،أشارت النخب بشكل متزايد إلى معادن الصين ، وخاصة الفحم باعتباره المورد الأكثر قيمة في البلاد.

كان من الصعب الحفاظ على بعض هذه المشاريع الصناعية. كان المال والفحم ومدخلات المواد الأخرى في بعض الأحيان شحيحة. لم يكن المسؤولون دائمًا مستعدين لتبني التكنولوجيا الجديدة بشكل كامل. وأعربوا عن مخاوفهم من أن الآلات سوف تستنفد بسرعة الإمدادات الوطنية من المعادن. قلق آخرون من أن الآلات ستؤدي إلى المزيد من العاطلين عن العمل.

ومع ذلك، استمرت فكرة استخدام الآلات لاستغلال الموارد الطبيعية في الصين في الظهور لدى النخب الشابة ذات العقلية الإصلاحية. كان من بينهم "صن يات صن"، الذي اشتهر فيما بعد بجهوده للإطاحة بسلالة "تشينغ" ودوره في قيادة الحزب القومي الصيني بعد عام 1911م, وفي عام 1894م، اقترح "صن" في رسالة مشهورة إلى رجل الدولة في "تشينغ" السيد "لي هونغ تشانج": سيكون استخدام الآلات ضروريًا للاستفادة من موارد الصين الوفيرة غير المستغلة. تتميز رسالة "صن" أيضًا بتركيزها على الكهرباء كمصدر محتمل للطاقة للتصنيع.

خلص بعض المؤرخين إلى أن التصنيع المبكر للصين لم يكن ناجحًا لأنه لم يكن قادرًا على منع فقدان البلاد للسيادة أمام الإمبراطوريات الأجنبية. لكن بالنسبة إلى المؤرخين البيئيين، قد تكمن أهم الأسئلة في مكان آخر. من خلال تحويل الانتباه إلى العلاقة بين الآلات والطاقة والموارد الطبيعية والبيئة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، يمكننا حل الأسئلة التي لم تتم الإجابة عنها بشأن التاريخ البيئي الصيني. على سبيل المثال لا يعرف سوى القليل عن الخسائر البيئية للآلات والفحم في هذا العصر. هناك أيضًا القليل من الفهم للاستجابات المبكرة للتلوث الصناعي

والحضري في مدن "الصين". هل اعتنقت النخب والعامة في المناطق الحضرية التغيرات البيئية التي أحدثها التصنيع المبكر كعلامات للتقدم؟, أم أنهم ارتدوا بسبب تلوث الهواء والماء والتربة؟, إلى أي مدى يعكس التاريخ البيئي للتصنيع المبكر في الصين صدى التاريخ البيئي للتصنيع في القرن التاسع عشر في أماكن أخرى من العالم؟,

مشهد لأحد المصانع المتوسطة من مبنى مجاور

بالطبع لم تحقق الصين تصنيعًا واسع النطاق ولم تعتمد بشكل كبير على الوقود الأحفوري حتى وقت لاحق في القرن العشرين. لكن الآلات التي تعمل

بالفحم ورؤى المناظر الطبيعية الصناعية في أواخر القرن التاسع عشر كانت بشائر لأشياء قادمة.

وضع الأساس: 1949-1972

كانت الصين خالية من أي صناعة حديثة حتى عام 1949م، عندما تأسست جمهورية الصين الشعبية. في أواخر عهد أسرة تشينغ (1644-1911) ، قامت الصين ببناء أول خط سكة حديد، ومحطة للطاقة، وحوض جيانغنان لبناء السفن ، تليها صناعات أخرى خلال فترة جمهورية الصين (1912-1949). ومع ذلك كان يتم تشغيل المعدات المستوردة في ذلك الوقت من قبل فنيين أجانب. كان التصنيع والنظام الصناعي غير موجودين في الصين.

في حرب الثماني سنوات ضد العدوان الياباني (1937-1945) وحرب التحرير التي استمرت ثلاث سنوات، تم تدمير معظم المصانع القليلة التي كانت تعمل في البلاد. بحلول الوقت الذي تم فيه تأسيس "جمهورية الصين الشعبية"، كانت الصناعة المحلية لا تتكون من أكثر من عدد قليل من المصانع المتداعية التي عفا عليها الزمن.

بدأت الصين التصنيع في الخمسينيات من القرن الماضي. خلال هذه الفترة تلقت 6.6 مليار روبل (1.65 مليار دولار أمريكي) كمساعدة من الاتحاد السوفيتي، متجاوزة مبلغ المساعدات الأمريكية لألمانيا بموجب خطة

مارشال (1.45 مليار دولار أمريكي) ، و3.08 مليار روبل (770 مليون دولار أمريكي) قيمة المعدات التقنية من دول أوروبا الشرقية، بدعمهم أطلقت الصين عملية تصنيع لا مثيل لها من قبل، حيث أطلقت 156 مشروعًا صناعيًا كبيرًا (اكتمل 150 منها) في قطاعات الصناعة الثقيلة مثل الطاقة والمعادن والآلات والكيمياء والدفاع الوطني. كما أدى تدفق رأس المال الأجنبي إلى تسريع الانتقال من الملكية الخاصة إلى ملكية الدولة للاقتصاد الصيني ، ووصل إلى هدفه قبل 10 سنوات من الموعد المحدد. وابتداءا من منتصف الخمسينيات من القرن الماضي ركزت الصين مواردها على التصنيع من خلال التجميع الجماعي لقسمها الزراعي، والذي ساهم في ذلك الوقت بما يصل إلى 30 في المائة من الدخل القومي السنوي بالمتوسط لتمويل التنمية الصناعية.

في مصنع تلفزيونات صيني في منطقة "باوان"

ارتفعت المساهمات التي قدمها القطاع الزراعي إلى مستوى مذهل خلال السنوات الثلاث من 1959 **إلى** 1961 **عندما كانت الصين تعاني من الضربة المزدوجة للكوارث الطبيعية والضغط لسداد ديون الاتحاد السوفيتي. كان المعدل** 43.8 **في المائة في عام** 1959م **و**39.6 **في المائة في عام** 1960م **مقارنة بـــ** 24.9 **في المائة في عام** 1957م **و**33.9 **في المائة في عام** 1958م**. ونتيجة لذلك اضطر المزارعون إلى تقليص الحبوب لاستهلاكهم الخاص من أجل المساهمة بشكل أكبر في الصناعة التي تمولها الدولة. أدى التحول**

الجماعي للزراعة في الخمسينيات من القرن الماضي إلى فتح السوق الريفية للمنتجات الصناعية الثقيلة المصنوعة في المدن في الوقت نفسه، أدى الفارق بين ارتفاع أسعار المنتجات الصناعية وانخفاض أسعار المنتجات الزراعية إلى توليد رؤوس أموال للتصنيع في المدن.

خلال العقود الثلاثة الأولى من "جمهورية الصين الشعبية" شد الصينيون أحزمتهم على بطونهم لتطوير القطاع الصناعي. وفقًا لدراسة أجريت عام 1978م من قبل البروفيسور "يان رويجين" من جامعة "رينمين" الصينية ، خلال العشرين عامًا الأولى بعد عام 1949م، استخرجت الدولة 700-800 مليار يوان صيني من القطاع الزراعي، بينما كانت الأصول الثابتة للقطاع الصناعي المملوك للدولة يوان صيني تبلغ 900 مليار قبل عام 1978م. وجدت الدراسة التي أجراها أستاذ آخر بالجامعة "كونغ شيانغ تشى"، أن مبلغًا باهظًا قدره 17.3 تريليون يوان تم توجيهه من الريف إلى المدن على مدار الستين عامًا الأولى من "جمهورية الصين الشعبية".

نظرًا لكونها مدعومة بشكل كبير من الإنتاج الزراعي ، فقد شهدت الصناعة الصينية نموًا قويًا من عام 1950 إلى عام 1977م، بمعدل 11.2 في المائة، في المرتبة الثانية بعد "اليابان" على مستوى العالم. وأعلى بكثير من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وألمانيا والمملكة المتحدة على الرغم من الاختلال الصارخ بين الصناعة الثقيلة والصناعات الخفيفة والزراعةوالاستهلاك المحلي الهزيل ، حققت "الصين" بشكل مبدئي تراكمًا بدائيًا لرأس المال بحلول أوائل السبعينيات.

خلال هذين العقدين أنهوا من عدد من المشاريع الصناعية، وظهرت قاعدة صناعية وطنية في شمال شرق الصين، وتم تجديد القواعد الصناعية القديمة في المنطقة الساحلية، وتم بناء قواعد جديدة في شمال وشمال شرق الصين. قامت الدولة الآن ببناء نظام صناعي مستقل وكامل ونظام علمي متطور، واختبرت بنجاح أول قنبلة ذرية وقنبلة هيدروجينية، وأطلقت أول قمر صناعي لها. جعل هذا التقدم الصين أقرب إلى التصنيع منها إلى الزراعة، وأرسى الأساس للتنمية الاقتصادية في العقود التالية.

الانفتاح على العالم الخارجي: 1972-1978

خلال عقد 1969-1979م أيدت الصين السياسة المالية المتمثلة في عدم اقتراض أي أموال من دول أخرى أو من مواطنيها. ولم تحصل على أول قرض أجنبي إلا في ديسمبر 1979م, في السبعينيات، تم تمويل تطوير الصناعة الصينية بالكامل من الأموال المحلية. مع وجود احتياطي مالي لائق، واقتصاد وطني جيد التنظيم إلى حد كبير، وصناعات من جميع الفئات في توزيع متوازن، شهد الناتج المحلي الإجمالي للصين نموًا سريعًا خلال السبعينيات مما جعله الثامن والتاسع الأسرع في العالم.

عندما قدم رئيس الوزراء "تشو إنلاي" تقرير عمل الحكومة في المؤتمر الشعبي الوطني في 13 يناير 1975م, أعلن أنه "على عكس الاضطرابات الاقتصادية والتضخم في العالم الرأسمالي، حافظت الصين على التوازن المالي، ولا تدين بأي دولة أجنبية أو محلية بأي أموال، كما أن الأسعار مستقرة ، ومعيشة الناس تتحسن باطراد. البناء الإشتراكي يسير من قوة إلى قوة".

في أكتوبر 1971، تمت استعادة مكانة الصين كعضو دائم في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. وفي عام 1972 زار الرئيس الأمريكي "نيكسون" الصين. خلال الأشهر التالية أقامت أكثر من 40 دولة علاقات دبلوماسية مع الصين. لقد سقط الحصار الاقتصادي والفني القائم منذ فترة طويلة على الصين من قبل الغرب، مما مهد الطريق لانفتاح الصين على العالم الخارجي.

خلال السنوات الخمس التي تلت عام 1973، استوردت الصين ما قيمته 5.1 مليار دولار أمريكي من مجموعات كاملة من المعدات. كان هذا بمثابة بداية الموجة الثانية من الواردات الفنية من قبل الصين بعد المساعدات السوفيتية في الخمسينيات. مع كل من المعدات المستوردة والمنتجة محليًا، أطلقت الصين 26 مشروعًا صناعيًا واسع النطاق باستثمارات إجمالية قدرها 20 مليار يوان صيني، بدأت جميعها العمل بحلول عام 1982, وعززت النمو الاقتصادي للصين في الثمانينيات.

في الفترة من 1949 إلى 1978، زادت الصين ناتجها المحلي الإجمالي بمتوسط 7.3 في المائة على أساس سنوي، وأنشأت نظامًا صناعيًا كاملاً

ونظامًا اقتصاديًا وطنيًا بحلول عام 1980، تجاوز حجم قطاعها الصناعي حجم المملكة المتحدة وفرنسا، أكبر قوتين صناعيتين في العالم، وكان قريبًا من حجم أكبر عملاق صناعي في العالم وهو ألمانيا العربية آنذاك. وارتفعت قيمة الناتج الصناعي الإجمالي للصين إذ سرعان ما أصبحت ثالث أكبر قيمة للإنتاج الصناعي في العالم في منتصف الثمانينيات.

تعديل الهيكل الصناعي: 1978–2000

عمال صينيون أثناء عملهم في أحد المصانع

أدخلت الصين مجموعة من الإصلاحات الاقتصادية بعد الجلسة الكاملة الثالثة للجنة المركزية الحادية عشرة للحزب الشيوعي الصيني في عام 1978. واستنادا إلى التقدم التصنيعي السابق، بدأت الصين في إعادة هيكلة

القطاع الصناعي. وحولت الأولوية من الصناعة الثقيلة إلى الصناعات الخفيفة، وتبنت الاستراتيجية التي تهدف إلى تحسين معيشة الناس، والسعي إلى التنمية الشاملة للصناعة، والانفتاح على العالم الخارجي، وتعزيز تنمية القطاعات الاقتصادية المتنوعة.

لتحفيز تطوير الصناعة الخفيفة ، بدأت الصين في عام 1979 في إعطاء الأفضلية لقطاع توريد المواد الخام والوقود والكهرباء، وتدابير الابتكار والتجديد، وبناء البنية التحتية، وتطبيق القروض المصرفية، واستخدام النقد الأجنبي، واستيراد التقنيات، والنقل. أدت هذه الإجراءات إلى تغييرات هيكلية في النظام الصناعي الصيني.

شهدت التسعينيات طفرة في النمو في صناعة الكيماويات الثقيلة وصناعة المعالجة في الصين. في حين ظلت الصناعة الخفيفة محور التركيز ، فإن رفع مستوى الإنفاق الاستهلاكي وتسريع التحضر، وزيادة الاستثمار في النقل والبنية التحتية عززت تطوير الصناعة الثقيلة. لكسر عنق الزجاجة في مجالات الطاقة والنقل والمواد الخام ، انطلقت صناعة الكيماويات الثقيلة في عام 1993. وشهد العام التالي احتل إنتاج الصين من الحديد والصلب

زمام المبادرة في الإنتاج حول العالم ، مع احتساب إنتاج الصلب الخام لنصف الإجمالي العالمي.

في عام 1997 حدث تحول أساسي في التنمية الاقتصادية الصينية. في خضم الهبوط الاقتصادي الناعم والأزمة المالية الآسيوي، تبنت الصين سياسة مالية استباقية، وبدأت في إعادة هيكلة صناعية واسعة النطاق. بعد تلبية احتياجات الناس من الطعام والملابس والأجهزة المنزلية، ارتفع الطلب على السلع الاستهلاكية المعمرة. لقد تحررت من "اقتصاد النقص"، وحفز الهيكل المتغير للطلب على إجراء تعديلات وتحديث للهيكل الصناعي ، مما أدى إلى عودة الصناعة الثقيلة وصناعة المعالجة.

بحلول ذلك الوقت ، بعد أكثر من 20 عامًا من التطور السريع، كان التصنيع الصيني قد دخل مرحلة وسطى حيث تدعم الصناعات الثقيلة والخفيفة بعضها البعض ، وتشكل هيكلًا متوازنًا ، وتنمو في التآزر.

بعد إعادة التعديل من عام 1989 إلى عام 1991، تم تحفيز الاقتصاد الصيني بإصلاحات جديدة عقب جولة "دنغ شياو" بينغ التفقدية في جنوب الصين. حل اقتصاد السوق محل الاقتصاد المخطط وأصبح سياسة الدولة الأساسية.

أحد مصانع النسيج, التقطتها في زيارة مستقلة

أدى توسع أنظمة الشركات الحديثة إلى زيادة سرعة تصنيع المدن، وزاد ازدهار سوق رأس المال من الوقود إلى انطلاق الاقتصاد الصيني.

عولمة التصنيع: 2000 – الآن

ربما أكون قد شهدت هذه الفترة بعد انطلاقتها مباشرة, لكني لم أكن أدرك كمبتديء في تجربة الحياة الصينية, لكن ما شاهدته يدل على مقدار الجهد الكبير للمرحلة السابقة, ودليل واضح على قوة الخطة الحالية التي عاصرتها في كل مراحلها, وشاهدت خطوات التطور حتى على مستوى الشارع والمدن بشكل واضح, حيث تغيرت بنية المدن وشكلها بشكل مهول.

عمل دخول الصين إلى منظمة التجارة العالمية في عام 2001 إيذانا بدخول البلاد في عصر العولمة. على مدى العقدين الماضيين، كان التصنيع في الصين يعتمد إلى حد كبير على السوق المحلية. أدى انضمامها إلى منظمة التجارة العالمية إلى الثورة الثانية في الإنتاجية الاجتماعية للصين. مدفوعة بالصادرات والاستثمار والاستهلاك المحلي، نمت الصين لتصبح قوة تصنيعية دولية.

منذ عام 2000، أقامت أكبر 500 شركة في العالم عملياتها في الصين، واستحوذت على حصص السوق، واحتكرت التكنولوجيا الأساسية، وجذبت

عددًا كبيرًا من الباحثين ذوي الرواتب العالية. جلبت العولمة الاقتصادية إلى الصين المعرفة المتقدمة لإدارة الشركات ونماذج الأعمال التي يمكن للشركات المحلية التعلم منها.

مع تدفق كل من الاستثمار الأجنبي والمحلي تحولت دلتا نهر اليانغتسي ودلتا نهر اللؤلؤ ومنطقة بحر بوهاي إلى مراكز تصنيع دولية، وحصلت على اللقب رقم 1 في أكثر من 100 قطاع صناعي. وأصبحت جملة" Made in China" في المتاجر في جميع أنحاء العالم.

لقد أوجدت الكمية الكبيرة من السلع المصنعة ثروة كبيرة للصين. مدعومًا بالزيادات المستمرة في الاستثمار الأجنبي والفوائض التجارية، ارتفعت احتياطيات الصين من النقد الأجنبي إلى 3.18 تريليون دولار أمريكي في عام 2011 من 165.6 مليار دولار أمريكي في عام 2000، وبلغت ذروتها عند 3.84 تريليون دولار أمريكي في عام 2014. وفي عام 2015 انخفضت إلى 3.33 تريليون دولار أمريكي.

أحد مصانع السيارات في الصين أثناء زيارتها

من خلال اعتماد نموذج التنمية المناسب ، دخلت الصين في طفرة اقتصادية غير مسبوقة قبل الأزمة المالية لعام 2008. بعد ذلك، حولت تروس النمو إلى التنمية المستدامة عالية الجودة من خلال إبطاء النمو وإعادة الهيكلة،

والارتقاء باقتصادها. ترافق التحديات التي واجهتها في ظل الإصلاح الهيكلي المستمر لجانب العرض فرصًا جديدة للشركات الصينية.

باوان .. المدينة الصناعية الكبرى

تقع باوان في وسط منطقة خليج جوانجدونج-هونج كونج-ماكاو الكبرى وتلال دلتا نهر اللؤلؤ ، المجاورة لهونج كونج وماكاو وجوانزو، وتتصل بممر قوانغدونغ-هونج كونج-ماكاو الذهبي، وهي نقطة محورية رئيسية في "طريق الحرير البحري". تفتخر بموقع جغرافي فريد ومزايا إقليمية.

باوان لها تاريخ طويل يعود إلى أكثر من 1600 **عام عندما تأسست لأول مرة كمقاطعة في العام السادس من أسرة جين الشرقية (**331**م). إنها مدينة ثقافية مهمة ومشهورة في منطقة "لينغ نان" بالإضافة إلى أنها الأصل الثقافي لشنزن وهونغ كونغ. ، تغطي باوان مساحة** 397 **كيلومترًا مربعًا وتدير** 10 **مناطق فرعية يبلغ عدد سكانها** 6 **مليون نسمة.**

بعض المشاريع الكبيرة التي تقيمها المصانع العملاقة

على مدار 40 عامًا من الإصلاح والانفتاح، أنشأت "باوان" تدريجيًا نظامًا صناعيًا حديثًا رائدًا من قبل الصناعات الناشئة الإستراتيجية ، بقيادة صناعة المعلومات الإلكترونية، وتدعمها صناعة تصنيع المعدات والصناعات التقليدية المميزة بالإضافة إلى مستوى عالٍ من صناعة الخدمات المتطورة

والمتطورة. كمنطقة رئيسية للصناعة والتصدير والتصنيع في شنزن، يوجد في باوان 1083 شركة تساهم في إجمالي الناتج المحلي بأكثر من 100 مليون يوان صيني لكل منها، و70 من أكبر 100 شركة استثمارية عالمية، و60 شركة مدرجة و5842 شركة وطنية عالية التقنية في عام 2021 ، بلغ الناتج المحلي الإجمالي لمنطقة باوان 442.182 مليار يوان، وتجاوز إجمالي قيمة الإنتاج الصناعي فوق الحجم المعين 900 مليار يوان. هناك 52 شركة "عملاقة صغيرة" على مستوى الدولة و260 شركة متخصصة على مستوى المقاطعات والشركات الخاصة والجديدة التي تحتل المرتبة الأولى في المقاطعة. في عام 2022، تم اختيار منطقة باوان في المرتبة الثانية في قائمة أفضل 100 منطقة ابتكار في CCID 2022 ، بالإضافة إلى عشرات الآلاف من المصانع الصغيرة والمتوسطة تنتشر في المدينة وتصدر إنتاجاتها لكل الدول.

لدى "باوان" شبكة نقل حديثة تدمج النقل الجوي والبحري والسكك الحديدية بين المدن والطرق السريعة والمترو، بما في ذلك مطار باوان الدولي وميناء داتشا وان والكثير من محطات القطارات الرابطة بين المدن

والمقاطعات ومحطات المترو والطرق السريعة الساحلية على سبيل المثال طريق قوانغتشو, كما سيتم افتتاح مشروع جسر "شينزين–تشونغشان" على مستوى عالمي في عام 2024 والذي سيقوم باختصارعبور مصب نهر اللؤلؤ إلى نصف ساعة. يبلغ طول جسر "شينزين–تشوهاى – لينغدينغيانغ" 46.5 كم ويقلل وقت التواصل بين تشيانهاي في شنزن وزوهاي المحاذية لمكاو في الطرف الآخر من مصب نهر اللؤلؤ إلى نصف ساعة. من خلال الربط بين جانبي نهر اللؤلؤ لفتح شريان منطقة الخليج.

مبنى يضم مكاتب إحدى الشركات الكبيرة

الإستراتيجية الصناعية الجبارة في الصين:

قبل 70 عامًا كما ذكرت في البداية ، كانت الصين لا تزال في أنقاض الحرب وكانت المباني تنتظر أن يتم تشييدها ، لم يكن الناس يتوقعون أنها ستتحول إلى عملاق للبنية التحتية قريبًا ناهيك عن مساعدة الآخرين في بناء الجسور والموانئ و القضبان في بلدانهم. لقد كان تطوير البنية التحتية هو الذي دفع الصين إلى الأمام ، وستكون البنية التحتية أيضًا هي التي تفعل ذلك في المستقبل.

خلال نموها الإجمالي في السبعين عامًا الماضية ، كانت إنجازات الصين في البنية التحتية هي الأكثر وضوحًا وقد تم الاعتراف بها من قبل العالم. يمكن رؤية مثل هذه الإنجازات بسهولة من خلال عدد كبير من "الأوائل في العالم" التي اكتسبتها البلاد خلال العقود الأخيرة.

سد الخوانق الثلاثة على سبيل المثال أكبر مشروع للطاقة الكهرومائية في العالم من حيث إنتاج الكهرباء؛ مشروع تحويل المياه من الجنوب إلى الشمال في الصين، وهو أكبر مشروع لنقل المياه على مستوى العالم،

ويستفيد منه 100 **مليون شخص ؛ أطول خطوط أنابيب في العالم، مشروع خط أنابيب الغاز الضخم بين الغرب والشرق بطول** 8704 **كم, أعلى خط سكة حديد في العالم ، سكة حديد تشينغهاي – التبت ، حيث تصل أعلى نقطة فيه إلى ارتفاع** 5072 **مترًا؛ أطول جسر عابر للبحر في العالم جسر "هونغ كونغ – زوخاي – ماكاو" بطول** 55 **كم؛ وأطول نفق تحت الماء في العالم بطول** 6.7 **كم, على سبيل المثال لا الحصر.**

من أحد مصانع خزانات الغاز المسال الضخمة

والجدير بالذكر أن الصين لديها أيضًا أكبر عدد من الأميال مقارنة بأي خط سكة حديد عالي السرعة في العالم. بحلول نهاية عام 2018 بلغ إجمالي الأميال التي قطعتها السكك الحديدية عالية السرعة في الخدمة 30 ألف كيلومتر، وهو ما يمثل أكثر من ثلثي إجمالي الأميال التي قطعتها السكك الحديدية عالية السرعة في العالم.

وفقًا لتقارير وسائل الإعلام ، تم إجراء 2.98 مليار رحلة ركاب خلال فترة ذروة السفر التي استمرت 40 يومًا في عيد الربيع في عام 2019. ويمكن أن تدور الرحلات في جميع أنحاء البلاد في غضون عام واحد حول الأرض سبع أو ثماني مرات إذا تم وضعها واحدة تلو الأخرى في طابور.

ولا يزال هذا الأميال بعيدًا عن تلبية الطلب المحلي ، لا سيما خلال العطلات عندما يضطر الناس إلى التدافع للحصول على تذاكر العودة إلى الوطن.

تهدف الصين إلى تشغيل 3200 كيلومتر أخرى من خطوط السكك الحديدية عالية السرعة في عام 2019م.

إنجازات تحققت بجهد مضاعف

عندما تأسست الصين الجديدة في عام 1949 كانت في حالة من الفوضى بعد عقود من الحرب. الطرق السريعة والسكك الحديدية ... بدأت البنية التحتية للمواصلات بالكامل تقريبًا من الصفر وتطورت بسرعة مذهلة إلى ما يمكن رؤيته اليوم. منذ عام 1949 إلى عام 2023، شهدت شبكة النقل في البلاد توسعًا ملحوظًا. بحلول نهاية عام 2023م بلغ إجمالي المسافة المقطوعة لتشغيل السكك الحديدية 141 ألف كيلومتر، أي خمسة أضعاف ما كان عليه في عام 1949، وفقًا لتقرير صادر عن المكتب الوطني للإحصاء. كما توسعت الممرات المائية الداخلية بنسبة 72.7 في المائة لتصل إلى 127 ألف كيلومتر بالأميال بينما ارتفعت مسارات رحلات الطيران المدني بمقدار 734 مرة عن الرقم في عام 1950م إلى 8.88 مليون كيلومتر في عام 2023.

.

كما سجلت شبكات الاتصالات توسعا سريعا. زاد عدد فروع الخدمات البريدية 9.4 **مرات على مدى العقود السبعة، ليصل إلى** 275000 **في جميع أنحاء البلاد. تجاوز مستخدمو شبكة النطاق العريض للأجهزة المحمولة في الصين** 1.51 **مليار في عام 2023.**

بدءًا من الصفر تقريبًا إلى أكبر قوة في البنية التحتية الرئيسية في العالم اليوم, فإن هذه الإنجازات لا تأتي من أي فراغ لقد تم بناؤها على سنوات

من الجهود والعمل الجاد من ملايين المواطنين الصينيين الذين كانوا على استعداد لتقديم التضحية ونكران الذات لدى شعب عظيم وجبار.

لم يتباطأ تطوير البنية التحتية في الصين بعد الإنجازات التي تحققت حتى الآن. في المستقبل، مع طرح الطائرات الإقليمية والطائرات الكبيرة المصنعة محليًا، ستدخل الصين طفرة في صناعة الطيران ، بما في ذلك النقل بالسكك الحديدية الجديد الذي تم تطويره وهو على قدم وساق في الصين .

بينما أنشأت الصين فريقًا قويًا للبنية التحتية، فقد طورت أيضًا آلات ومعدات البناء الخاصة بها ، والتي تستخدم التكنولوجيا التي تحتل مكانة عالمية رائدة. لا تستخدم الصين ببساطة القوى العاملة لإكمال مشاريع بناء الجسور كما نرى في مقاطع الفيديو على الإنترنت ، لكنه يستخدم الكثير من المعدات الميكانيكية المحلية والكبيرة. كما أن الجودة والتكنولوجيا وأداء التكلفة تنافسية في جميع أنحاء العالم.

ربط العالم

بقدراتها الرائدة في مجال بناء البنية التحتية ، تتطلع الصين الآن إلى الأسواق الخارجية في محاولة لربط العالم بقدراتها في هذا القطاع.

تعد الصين الآن أكبر دولة تتلقى طلبات لمشاريع البنية التحتية في الخارج ، وتحتل المرتبة الأولى في العالم لأكثر من عشر سنوات متتالية. وتتجاوز قيمة الطلبات كل عام مئات المليارات من الدولارات الأمريكية كل ما تحتاج إليه الصناعة حتى تزدهر هي الطاقة والطرق والتقنية والعقول والتخطيط المتطور والملائم والاتصالات بالإضافة إلى سهولة تدفق المواد الخام من وإلى المصانع ولهذا تهدف مبادرة الحزام والطريق التي اقترحتها الصين في عام 2013 ، إلى بناء شبكة تجارة وبنية تحتية تربط آسيا بأوروبا وأفريقيا وخارجها. إنه مثال حي على كيفية قيام الصين بربط العالم بخبرتها في البنية التحتية.

واحد من منات المطارات الصينية التي تسهم في العملية الصناعية والتجارية

تهدف مبادرة الحزام والطريق التي اقترحتها الصين في عام 2013، إلى بناء شبكة تجارة وبنية تحتية تربط آسيا بأوروبا وأفريقيا وخارجها. إنه مثال حي على كيفية قيام الصين بربط العالم بخبرتها في البنية التحتية.

بعد سنوات من الجهود المتواصلة ، شهدت مبادرة الحزام والطريق إنجازات عديدة. مع زيادة التعاون في الموانئ والسكك الحديدية والطرق السريعة والكهرباء والطيران والاتصالات، تمت ترقية تطوير البنية التحتية على طول الحزام والطريق بشكل فعال ليس في الصين بل خارج حدود الصين وفي قارات مختلفة ، مع نتائج أفضل من المتوقع.

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الموانئ متصلة بشكل أفضل من مرافق النقل الأخرى بين الصين والدول الأخرى على طول الحزام والطريق. تحتفظ الصين بالمرتبة الأولى على مستوى العالم في الاتصال البحري، حيث تربط طرق الشحن موانئها بأكثر من 200 دولة و600 ميناء رئيسي.

وفيما يتعلق بوصلات السكك الحديدية ، فقد تجاوز العدد التراكمي للرحلات التي قامت بها قطارات الشحن الصينية الأوروبية 12000 رحلة في عام 2018، ووصلت الشحنات السنوية إلى 16 مليار دولار، مقارنة بـــ 17 رحلة فقط وأقل من 600 مليون دولار في عام 2011م إجمالي التجارة بين الصين ودول الحزام والطريق الأخرى 6.47 تريليون دولار خلال الفترة 2013–2018.

مجمع مستودعات ومباني كبيرة تضم العديد من المصانع المختلفة

تم بناء أكثر من 80 **منطقة تعاون اقتصادي وتجاري خارجي ، وخلق أكثر من** 244 **ألف فرصة عمل للسكان المحليين.**

جسر إلى المستقبل

فيما يتعلق بالعصر الذكي، أؤكد مرة أخرى على أهمية قدرة البنية التحتية لأنها توفر أيضًا أساسًا مهمًا للصين لتحقيق التصنيع والتحضر في المستقبل ، بقيادة تكنولوجيا المعلومات.

ولا ننسى مراكز البحث والتطوير ، وهو شائع في جميع صناعات التكنولوجيا والتكنولوجيا الحيوية. غالبًا ما تشتمل مراكز البحث والتطوير على مزيج من المكاتب والمختبرات وحتى مناطق التصنيع داخل عقار يشبه الحرم الجامعي بغرض إنشاء المنتجات وتحسينها. مقارنة بالمنشأة المرنة النموذجية ، غالبًا ما تتطلب مباني البحث والتطوير مزيدًا من الطاقة بسبب معامل الاختبار الكهربائية الخاصة بها.

ولن أغفل دور التكنولوجيا الحيوية حيث تعد مرافق التكنولوجيا الحيوية مجموعة فرعية أخرى من المباني المرنة التي هي في الغالب مختبرات تختبر وتحلل المواد الكيميائية والأدوية والعمليات البيولوجية الأخرى. مباني التكنولوجيا الحيوية هي مختبرات رطبة، مما يعني أنها مساحات

تجريبية تتميز بمعالجة أنواع مختلفة من المواد الكيميائية والسوائل (مقابل المعامل الجافة التي تركز على المحاكاة). بسبب المخاطر المحتملة، تتطلب مباني التكنولوجيا الحيوية تخطيطًا خاصًا لتجنب التلوث والانسكابات. ومن الأمثلة على ذلك التهوية المباشرة ، ومرافق الأنابيب المتخصصة ، والتحكم في درجة الحرارة وفوق هذا كله تأتي أسواق الجملة المتخصة والعملاقة في مدن عديدة تضم عشرات الآلاف من المحال التجارية التي تبيع لكل أنحاء العالم بل إن هناك مدن كاملة بنيت حول أسواق الجملة كمدينة إيوو التي تضم أكبر سوق في العالم وهو سوق فوتيان تباع فيه كل المنتجات التي تستهدف دول في آسيا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا وحول هذا السوق تطورت المدينة من قرية صغيرة .

أحد أسواق الجملة في مدينة إيوو

وقد شاهدت بنفسي بعد جائحة كورونا في الصين مطلع العام 2020م بعد إغلاق الحدود والمطارات الصينية وتوقف حجم العمل التجاري والتصدير لصالح الطلب المتزايد على منتجات الوقاية الطبية كالكمامات الطبية والمعقمات وغيرها من المنتجات المرتبطة بها، شاهدت المصانع الصينية بمعظمها لتعويض غياب العملاء في منتجاتهم الأصلية بتحويل مصانعهم إلى معامل لإنتاج الكمامات الطبية للسوق المحلي والخارجي على حد سواء وكذلك لإنتاج الآلات التي تنتج الكمامات الطبية على مختلف أنواعها، وهذا يدل على وجود قدرة صناعية جبارة وبنية تحتية تسمح بهذه المرونة مع وجود خبراء ومدربين تستعين بهم المصانع لتدريب عمالهم السابقين، فلا يمكن لعامل يعمل في مصنع لإنتاج الجوارب أن يعمل مباشرة في إنتاج الكمامات أو كما شاهدت مصنعا لإنتاج قدور الطبخ ينتج آلات إنتاج الكمامات التي تضاعف سعرها ستة أضعاف سعرها الأصلي لتغطية الطلب المتزايد داخل الصين وخارجها، وكل هذا يأتي وفق دور حكومي جبار ومرونة مذهلة في السماح بتنفيذ مثل هذه التغييرات دون تأخير.

من مصنع للمواد الصحية وأحواض الغسيل والسباحة

وحتى نوضح فكرة البنية التحية الاستراتيجية الصناعية التي لا ترتبط فقط بقرار حكومي فقط دون الأخذ بالاعتبار كل العوامل الأخرى المرتبطة بها، فتخيل أن خبير عطور عربي يريد إنتاج مجموعة من العطور الخاصة عبر مصنع صغير يؤسسه لعهدها الغرض، فإنه سيحتاج إلى موقع ملائم وقريب من وسائل المواصلات ويسمح بمرور الشاحنات والعمال يوميا، بالإضافة إلى خبراء وموظفين متوفرين، وكذلك الآلات التي تساعده في تنفيذ عمله

كآلات المزج والخلط والتعبئة والتغليف، ثم سيحتاج إلى المواد الخام لتنفيذ عمله وهي مجموعة كبيرة من الزيوت العطرية كزيوت الهيل والبرغموت والخزامى والبرتقال والزيتون والياسمين والعود وغيرها من آلاف الزيوت والتي يستحيل أن تتوفر جميعها في البلدان العربية وأخيرا تنفيذ العلب النهائية للمنتج ثم شبكة التوزيع وآليات البيع والتصدير والتعامل مع الضرائب والجمارك بسلاسة ثم مواقع إنترنت تسمح بترويج البضاعة، في الصين كل هذا يتم بسلاسة ودون عناء ودون حتى الخروج من المكتب بينما في الدول العربية يحتاج المُصنع إلى تنفيذ جزء من المراحل بنفسه، فعليه شراء شاحنات للتوزيع وآلات لإنتاج صناديق التعبئة والزجاج وتدريب عماله بنفسه واستيراد الخبراء من الخارج وشراء المواد الخام من بلدان مختلفة بل وشراء المواد نفسها مع استيراد خبير للتدريب على استيراد الآلات ثم التعامل الطويل والممل مع إدارات الدولة المختلفة من الضرائب والجمارك ونقاط الجباية والمفتشين.

فالصين وفرت كل ما يلزم لحدوث هذه الثورة التقنية فلا يلزم المصانع أن تعمل مئة بالمئة من المنتج، وقد زرت مصانع كبيرة ومعروفة عالمية وتحتل مساحتها عشرات الكيلومترات المربعة وهي ليست سوى مصانع

تجميع للمنتج النهائي فهل سبيل المثال مصانع مكيفات التبريد التي زرتها فهي تقوم بالتعامل مع مصانع كبيرة للبلاستيك لتنفيذ الهيكل الخارجي ومصانع ضخمة للأسلاك الكهوبائية والموصلات وكذلك اللوحات الإلكترونية الداخلية بإمكانك أن تتفق مع المصنع أن تكون كورية أو يابانية من شركات عالمية معروفة تستفيد هي بدورها من هذا التكامل فتبيع لآلاف المصانع هذه التقنية الجاهزة، فتقوم المصانع الصينية بدورها الأخير في تجميع كل هذه القطع في منتجها النهائي وفق خبرتها وسمعتها وقدرتها على تخفيض التكلفة لك حتى تصدرها إلى بلدك خلال شهرين من الاتفاق على أقصى تقدير، بينما أنت في بلد ستحتاج لإنشاء خمسة مصانع على الإقل إذا قررت إنشاء مصنع لمكيفات التبريد في بلدك، وبناء كل المرافق اللازمة بعد سنوات من المتابعة والاستنزاف الحكومي بينما في الصين فهناك مدن بأكملها متخصصة في المصانع بمباني متخصصة في المصانع وكل ماعليك هو اختيار الموقع والمساحة التي تلائمك بإيجار سنوي.

من أحد مصانع المكيفات الهوائية العالمية

فالمبنى الصناعي أحد الأنواع الأربعة الرئيسية للعقارات التجارية المستخدمة لأغراض تجارية. ببساطة ، المباني الصناعية هي مصانع أو مباني كبيرة أخرى تستخدم بشكل أساسي لتصنيع أو تخزين المواد الخام أو السلع أو الخدمات للأغراض الاقتصادية.

تعود أصول المباني الصناعية في الولايات المتحدة إلى عام 1790م عندما افتتح صامويل سلاتر أول مصنع نسيج أمريكي ، والذي غالبًا ما يُعتبر بداية الثورة الصناعية الأمريكية. في النهاية، أظهر سلاتر الفوائد المالية لاستخدام هذه الهياكل لزيادة إنتاج السلع بشكل كبير. سريعًا إلى اليوم ، غيرت المباني الصناعية تمامًا طريقة الحياة الأمريكية – بحجم سوق يقارب 32 مليار دولار.

طابق في مبنى متعدد الطوابق بانتظار تأجيره أو بيعه لأحد المصانع

إما أن تختار إقامة مشروعك في مستودع مفتوح مع مكاتب للإدارة أو مبنى بطوابق متعددة وكل قسم بطابق مستقل أو طابق واحد مخصص للمصانع في مبنى يضم عشرات المصانع الصغيرة أو أن يكون لديك مبنى خاص أو مستقل إذا كنت تملك الإمكانية لذلك، وكل ما عليه فعله هو البدء في تنفيذ مشروعك ثم استخراج التراخيص اللازمة التي لن تحتاج سوى لبضع توقيعات وبعض المواعيد، فلذلك أصبحت الصين هي صاحبة هذه الثورة الصناعية – المعجزة والتي يتحدث عنها كل العالم حتى في قريتي الصغيرة في بلادي يسألني عنها، وهو انعكاس للعقلية الصينية الجبارة التي آمنت بنفسها وبشعبها وتاريخها فانطلقت نحو المستقبل وجعلت من تعداد شعبها العظيم عامل قوة ونقطة جذب, وقد ارتأيت تفصيل الحديث عن الصناعة في الصين من واقع خبرتي ومعايشتي لهذا طوال سنوات طويلة حتى يدرك أبناء جلدتي أن الأمر يحتاج إلى العزيمة والجهد والصبر والولاء للوطن وأن ما وصلت إليه الصين هو نتاج تظافر كل هذه العوامل وأكثر وهو ليس بالعمل الهين أو البسيط وإلا لكانت دول كثيرة قامت به وهي تملك البشر والأرض والثروات والموقع الاستراتيجي, لكن الوصول إلى الهدف يبدأ من خطوة..

سكك حديد متطورة

زرت أنا رفقة "عمير" بعض المصانع التي تهتم بتصنيع أجهزة الشاشات المحمولة في السيارات حيث يريد تدشين منتجات شركته والتي أسماها "سيلفر تيك".

عندما سألت عمير عن أصوله أخبرني أن جده انتقل من "كشمير" في فترة الحرب العالمية الثانية والمنطقة التي جاء منها تقع حاليا في "باكستان"،

حيث تأتي الغالبية العظمى من المهاجرين الباكستانيين في المملكة المتحدة من "ميرابور" في "كشمير"، التي لها تاريخ طويل في الهجرة الخارجية . وجد البحارة من "ميرابور", عملاً في غرف المحركات على السفن البريطانية التي تبحر من بومباي وكراتشي، واستقر بعضهم في المملكة المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وجد المهاجرون من القارة الهندية قبل الانفصال الذين قدموا إلى بريطانيا بعد الحرب فرص عمل في صناعات النسيج في "لانكشاير" و"يوركشاير" "ومانشستر" و"برادفورد" والسيارات والمصانع الهندسية في "ويست ميدلاندز" "وبرمنغهام"، وفي تنمية المناطق الصناعية الخفيفة في أماكن مثل "لوتون" و"سلو".

المجموعات الأخرى التي هاجرت من "باكستان" في الستينيات تشمل "البنجاب" الذين استقروا بشكل أساسي في "غلاسكو" و"برمنغهام" و"ساوثال" في "لندن"، والمهاجرين من المناطق الحضرية الذين كانوا أكثرعرضة للعمل المهنيين وعملوا في في مصانعها. ومنذ ذلك الوقت استقر جده في "يوركشاير" ومازالوا بها حتى اليوم، وقد عاصر جده مرحلة مابعد الحرب

العالمية الثانية في مانشستر مرحلة مابعد انحدار صناعة القطن حيث كانت مانشستر مدينة القطن الأولى في العالم.

كان عمير يحب "مانشستر" القريبة وهو من مشجعي الشياطين الحمر وبعد حديث سريع عن النادي، أخذت أسأله عن "مانشستر" بحكم أن جدي عاش في بريطانيا لكن في مصانع الجنوب الإنجليزي التي كانت مشهورة بصناعات الحديد والصلب وطالما حدثني جدي عن صعوبات تلك المرحلة والعمل الجاد في تلك المصانع التي كانت تفتقر إلى معايير السلامة والرعاية وفق معايير تلك المرحلة، أخبرني "عمير" عن تاريخ منطقته منذ أن بدأت "مانشستر" في التوسع "بمعدل مذهل" في مطلع القرن التاسع عشر حيث توافد الناس على المدينة للعمل من اسكتلندا وويلز وأيرلندا ومناطق أخرى في إنجلترا كجزء من عملية التوسع الحضري غير المخطط لها التي أحدثتها الثورة الصناعية. لقد طورت مجموعة واسعة من الصناعات، وبحلول عام 1835 كانت مانشستر بدون تحدي أول وأكبر مدينة صناعية في العالم. صنعت الشركات الهندسية في البداية آلات لتجارة القطن، لكنها تنوعت في التصنيع العام. وبالمثل بدأت الصناعة الكيميائية بإنتاج مواد

التبييض والأصباغ، وتوسعت في مجالات أخرى. كانت التجارة مدعومة من قبل صناعات الخدمات المالية مثل البنوك والتأمين.

تطلبت التجارة وإطعام السكان المتنامي، بنية تحتية كبيرة للنقل والتوزيع، تم توسيع نظام القناة، ودشنت "مانشستر" أول سكة حديدية ركاب بين المدن في العالم "سكة حديد ليفربول ومانشستر". أدت المنافسة بين مختلف أشكال النقل إلى انخفاض التكاليف.

كانت المملكة المتحدة في فترة ما بعد الحرب في حاجة ماسة إلى العمالة لخدمة الصحة الوطنية الجديدة وغيرها من مجالات الاقتصاد. على سبيل المثال ، أعطى القانون الوطني البريطاني لعام 1948 الجنسية البريطانية لأي شخص عاش في الإمبراطورية البريطانية والكومنولث في ذلك الوقت. لذلك في فترة ما بعد الحرب، كان العديد من البنغلاديشيين والهنود والباكستانيين مواطنين بريطانيين أيضًا ولهم الحق الكامل في السفر إلى المملكة المتحدة

أدى توسع الاقتصاد البريطاني في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي إلى حدوث نقص كبير في العمالة خاصة في المنسوجات والتصنيع

التقليدي والنقل. استمرت هذه القطاعات في ممارسات العمل مثل ساعات العمل الطويلة والعمل بنظام الورديات الذي يقترن بالأجور المنخفضة مما جعل الوظائف غير جذابة للعمال البريطانيين, يبدو أن الحل في جلب عمال من الخارج. يمكن أن يأخذوا هذه الوظائف التي لا تحظى بشعبية على مستويات أجور العالم الثالث. وبناءً على ذلك استجابت "بريطانيا العظمى" من خلال النظر إلى بقايا الإمبراطورية ودول الكومنولث المستقلة حديثًا لجلب العمال كحل مؤقت لما كان يُنظر إليه على أنه مشكلة عمل قصيرة الأجل, ركز أولدام بشكل أساسي على المناطق الريفية في باكستان ودول الكومنولث ومنطقة سيلهيت التي ستصبح فيما بعد جزءًا من بنغلاديش.

وقد أخبرني "عمير" أن جده أخبره بأن بعضهم كانت وظيفته فقط أن يجلب العمال إلى المصانع مقابل حصوله على جنيهين إسترلينيين على كل رأس وذلك لحاجة المصانع إلى العمال من أي مكان ومن أي جنسية.

استمرت معالجة وتجارة القطن في الانخفاض في وقت السلم، وأغلقت البورصة في عام 1968. بحلول عام 1963 كان ميناء مانشستر ثالث أكبر ميناء في المملكة المتحدة، ويعمل به أكثر من 3000 رجل، لكن القناة لم تكن

قادرة على التعامل بشكل متزايد مع سفن الحاويات الكبيرة . انخفضت حركة المرور وأغلق الميناء في عام 1982. عانت الصناعة الثقيلة من انكماش منذ الستينيات وتقلصت إلى حد كبير في ظل السياسات الاقتصادية التي اتبعتها حكومة مارغريت تاتشر بعد عام 1979. فقدت مانشستر *150* ألف وظيفة في التصنيع بين عامي 1961 و1983م.

أخبرني عمير أن والده عاصر الصعوبات الاقتصادية في مرحلة الثمانينات وما تلاها لكنه كان مصرا على تعليمهم تعليما راقيا حتى يتجنبوا مصيره الذي واجهه كابن لمهاجر كشميري لم يكن يتحدث الإنجليزية بشكل جيد، وفي نفس الوقت كان حريصا على أن يكونوا محافظين على إسلامهم، وفي الحقيقة كان "عمير" محافظ على آداء الصلوات الخمس حيث كان مسلما حقيقا في كل تصرفاته وعندما كنا نصعد إلى مسجد الفندق لآداء الصلاة كان دائما ما يجعلني الإمام لأني عربي من وجهة نظره.

كان "عمير" منبهرا بما شاهده من الصين بكل ما تحمله كلمة الانبهار من معانٍ، وهو يشاهد قدرة الصينيين على البناء والتخطيط والتفكير، وهو من كان يظن أن هونغ كونغ البريطانية هي نتاج الحضارة العربية ليخبرني فيما

بعد أن هونغ كونغ لا تساوي حيا من أحياء مدينة شنزن. وقد حرصت على أخذه في جولة سياحية حيث زرنا "حديقة نافذة على العالم" في مدينة "شنزن" التي تضم في جنباتها نماذج بحجم كبير لحضارات العالم كبرج إيفل والأهرامات وبرج بيزا وتاج محل وغيرها من أجمل مباني العالم وقد كان سعيدا وهو يلتقط الصور بجانب تلك المعالم مع تعبيره المستمر عن إعجابه بما شاهد، كما زرنا حديقة لبعض النباتات والزهور النادرة والفراشات في مبنى خاص كمحمية طبيعية وكم كنت أتمنى أن يذهب معي إلى مدينة جوانزو كي يستمر مسلسل الإدهاش بحكم معرفتي بالمدينة ولن يكون بحاجة إلى فندق بطبيعة الحال ومنزلي مفتوح له لكنه اعتذر لي بأدب جم بسبب موعد رحلته وهكذا حان الوداع بيننا.

لم يشتر عمير أي منتجات وهو معتاد في عملنا, فنسبة قليلة ممن يأتي قد يشتري, وقد استمر التواصل بيني وبينه لفترة طويلة من الوقت عبر الإيميلات ثم الواتس أب للسلام والإطمئنان، لكنه في إحدى المرات طلب مني أن أشحن له بعض الإكسسورات النسائية من الصين وهو ما فعلته عن طيب خاطر ودون مقابل لأن الكمية قليلة لا تتجاوز بضع صناديق صغيرة، وعندما قمت بتغيير رقم هاتفي أرسلت له رسالة للإطمئنان عليه وقام بالرد

علي، لكنه كما يبدو قام بتغيير رقم هاتفه وإيميلاته التي كانت تخبرني بفشل عملية الإرسال, بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر عاما على لقائي به في المرة الوحيدة، وقبل إنجاز الكتاب تلقيت رسالة من أحد إيميلاته الثلاثة التي كان يراسلني منها ويبدو أنه استعاده, وأخبرته عن إصداري لكتبي الثلاثة, وبأنه سيكون محورا لبعض القصص, لكنه اشترط عدم نشر صوره وكنت أعلم رغبته هذه, "عمير" واحد من أكثر الذين جمعتني بهم أرصفة المدن روعة ورقيا والتزاما وثقافة.

حينما قابلت آخر ضابط سياسي بريطاني في ردفان

حينما قابلت آخر ضابط سياسي بريطاني في ردفان

في أحد الأيام التي نسيت تاريخها تماما في دنيا الغربة ومشاغل العمل و التي أظنها في عام 1998, كنت في مدينة "الحبيلين" حاضرة ردفان وقتها في زيارة عائلية, خرجت للشارع كعادتي بعد العصر فسمعت بعض الأطفال يتحدثون بالشارع عن وصول "ميلين" إلى الحبيلين.

ومعروف في المنطقة بأن ميلين كان آخر ضابط سياسي في منطقة ردفان أوالحبيلين أو كما يطلق عليها في الوثائق البريطانية (الثمير) التي ظلت قرية صغيرة بينما أصبحت المساحة الخالية كمدرج مطار عسكري بريطاني عرفت باسم "الحبيلين" عاصمة المنطقة التي أصبح اسمها ردفان نسبة لمنطقة الثائر راجح بن غالب لبوزة, لكن أهل المنطقة لم يستطيعوا نطق "مينيل" فأسموه "ميلان" , اسمه الحقيقي هو "Godfrey Meynell", ولم يكنلدي كاميرا وقتها ولم تكن الهواتف قد نزلت, وعند البحث عنه في الإنترنتوجدت له صورة واحدة أثناء قيامه بنشاطات إنسانية في العراق.

لقطتان علويتان لمدينة الحبيلين ــ من الإنترنت

كان مايزال اسمه يتردد رغم مضي مايقارب أكثر من أربعة عقود على خروج بريطانيا, كانت في أغلب الأحيان بعض القصص مع الثوار الذين قابلت بعضهم في زياراتي وبعض الذين كانوا يعملون كجنود أو عمال في معسكر "الحبيلين" الذي كان يشغل كامل مساحة المدينة كمدرج مطار و مخيمات و إدارة فلم يكن للمدينة وجود حينها.

وقد شاهدت أحد الأطفال المصابين بمرض (المنغوليا) والذي أطلقوا عليه اسم (ميلان) من باب السخرية لمن كان الحاكم الناهي في تلك المنطقة.

عرفت من الأطفال حينما يذكرون وصوله أنه يتواجد عند الجامع الكبير في منتصف المدينة تقريبا على شارعها العام الواصل بين عدن و صنعاء, فأسرعت الخطى لرؤيته من باب الفضول وصلت إلى عند الجامع فشاهدت تجمعا صغيرا وبعض الأطفال يجرون إلى بقعة خلف المسجد , وصلت إلى المكان و كما يبدو لم يفتني شيء من المشهد بعد , رأيت كهلا أشيب الشعر طويل القامة و أبيض البشرة يمشي في المكان فاقتربت منه بقدر ما تسمح به نفسي من حدود اللباقة.

كان الجامع خلفنا ووجوهنا ممتدة إلى حيث جبال ردفان الشهيرة في الجهة الشرقية من "الحبيلين" وعلى سفحها تقع قرى "سليك" الأقرب للحبيلين و"الثمير" و قرى "المصراح", على يسارنا يقع القطاع العسكري وهو معسكر صغير شرق الحبيلين.

جامع الحبيلين وفي هذه الزاوية بالتحديد وقف مينيل يتأمل المعسكر الذي كان يوما ما قائده بل قائد المنطقة برمتها ممثلا لإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس لكنها غابت من هذا المكان تحديدا

نظر الكهل "ميلين" إلى القطاع و في وسطه يقع مبنى حجري مكون من دورين و قال ممازحا:

ــ هذا بيتي .. ثم التفت إلينا قائلا : من يسكن به الآن ؟

كان هناك ضابط بالجوار ربما كان مخصصا لحراسة الضيف فصاح قائلا:

ــ أنا أسكن به..

فبادره الكهل قائلا:

ــ أووووه .. اعطني الإيجار إذن

كان نكتة طريفة ضحكنا لها بقوة, و يبدو أنه لم يكن يرغب بتفسير كلماته على نحو آخر فقال بلغة عربية سليمة مع بعض الكلمات العامية:

ــ حينما كنت في عدن وقفت بنا السيارة في محطة بترول بمنطقة "المعلا" فنظرت للوحة فإذا هي "محطة ردفان" فسألت العامل ممازحا :

ــ ماذا تعني ردفان ؟

فأجابني العامل بكل فخر :

ــ هذه ردفان التي طردنا منها المستعمر البريطاني

نظر إلى وجوهنا وكأنه كان يريد أن يوصل لنا الفكرة كنت معجبا بكلامه و أتابع باهتمام شديد لما قاله ويبدو أنه لاحظ هذا الإهتمام مني, فاقترب مني أكثر واضعا يده على كتفي و استمر بالحديث .

كان حديثه التالي عن الوحدة وأهميتها وأن الشعوب تنتصر بالتوحد والقوة ثم أشار للجامع الكبير الذي أصبحنا بمواجهته فقال مازحا:

ــ الدحابشة عمروا البلاد والله

ثم أخذ يمشي وهو مازال ممسكا بكتفي و حينا بيدي وهو يتحدث عن أهمية العلم وأنه لا مستقبل أمام الشباب والأطفال إلا بالعلم فهو عماد التطور ومستقبل الأمم كلها. حينما كان يتحدث وعندما كانت تتوه منه كلمة كنت أذكره بها فيستمر بالحديث رغم أن لغته العربية رائعة و جميلة .

كنا نقترب من الشارع متتبعين خطواته إلى أمام المسجد حيث يقف حافلة كبيرة مملوء بريطانيين أغلبهم كهول كما رأيت بعض الشباب من الجنسين فيها, جاء أحد الكهول إلى حيث يقف "مينيل" وبيده صندوقين صغيرين أخذهما منه حينما كان يحدثنا عن العلم و أهميته.

حينما انتهى من حديثه قام بفتح الصندوق الأول وأخرج منه مجموعة من أقلام الرصاص أعطانيها بيدي وطلب مني توزيعها على الحضور الذين أغلبهم من الأطفال مع بعض الشباب والرجال , وفجأة أصبح الزحام شديدا حولي وهم يقفزون لاختطاف الأقلام بينما هو قام بفتح الصندوق الآخر وأخرج مجموعة من أقلام الحبر وأعطانيها كذلك أيضا لتوزيعها , فتخلصت من الأقلام من النوعين بسرعة شديدة على الجميع مع الإحتفاظ كنوع من الذكرى بقلم من كل نوع.

وقف يشاهدنا قليلا قبل أن يتوجه إلى الحافلة ويقف على بابها ثم استدار وهو يودعنا بكل هدوء على عكس وداعه السابق القديم قبل مايقرب من ثلاثة عقود الحافل بالنار والحديد.

و قد بحثت عن زيارته لليمن بالنت لكني لم أجد أي خبر مطلقا على عكس زيارته للعراق في 2003م, رفضا للحرب فيها لكني مازلت أتذكر كلماته ورمزية إهداء الإقلام كتتويج لحديثه عن العلم و أهميته , وكذلك تعرضي للسخرية ممن يعرفني حينها من أبناء المدينة عن مغزى منحي الأقلام لي بالذات لتوزيعها, بينما بعضهم علل ذلك ساخرا بعمل جدي القديم في بريطاني.

جيبوتي .. سندريلا قبل منتصف الليل

جيبوتي .. سندريلا قبل منتصف الليل

لم تكن جيبوتي من الجو توحي بأي حداثة، مدينة ترابية بلون التراب وخالية من أي منازل مرتفعة مع اندلاع ثورة فبراير ضد نظام الرئيس الأسبق "علي عبدالله صالح" كانت سفارات الدول المختلفة قد أغلقت أبوابها في اليمن، وقد أخبرونا أن جيبوتي هي البلد الوحيد الذي يصلح أن ننجز معاملاتنا لاعتبارات كثيرة أنه لا يشترط الحصول على تأشيرات الدخول لليمنيين خاصة بعد أن أصبحت دول كثيرة في المنطقة تعاني من تبعات الفوضى والمظاهرات، لذا فقد كان القرار بالرحيل إلى "جيبوتي" التي كانت يوما جزءا من مملكة الحبشة "أكسوم" حين هاجر إليها المسلمون غير بعيد عن ميناء عدوليس التاريخي في المكان الذي نزل به الصحابة المهاجرون والذي يقع في إرتريا المجاورة حاليا. بالذات لتوزيعها,

في الطريق إلى جيبوتي .. أفريقيا قارة البحيرات والمساحات الشاسعة

كنت قد عرفت من بعض اليمنيين الذين ذهبوا قبلنا لإتمام معاملاتهم, أن هناك فندقا يدعى "فندق صنعاء" يحتل مبنى جديدا وشبكة إنترنت، لذا فقد كانت وجهتي معروفة للسكن طوال فترة تواجدي، كان وصولي بعد ظهيرة يوم الجمعة فكان لزاما علي الانتظار إلى اليوم التالي للذهاب إلى سفارة البلد الذي أرغب في إتمام معاملاتي الورقية لديهم.

قررت بعد وضع حقائبي في الفندق أن أتجول في الشارع، الذي كان واسعا مع رصيف واسع في منتصفه لكنه شبه ترابي، اتجهت يمينا عند خروجي حيث يقبع الشارع بأكمله ممتدا أمامي وبعد تجاوزي مبنى الفندق ذي الثلاث

جيبوتي أرض البساطة والطيبة من الجو

طوابق بدأت بعض المحلات الصغيرة تتراص على يميني ويبدو أنها في معظمها تبيع قطع غيار السيارات وكان بعض البائعين يقفون أو يجلسون أمام محلاتهم في ذلك الوقت.

لقطات للشارع من غرفة الفندق وتوضح جمالية المدينة عند بنائها ولم تتغير كثيرا

أدركت للوهلة الأولى أن أصحاب المحلات يمنيون من ملامحهم كما أدركوا هم ذلك من ملامحي وأنا أعبر أمامهم أني غريب ولست مقيما في البلد, ولأنهم كما يبدو قد تعودوا على قدوم اليمنيين مؤخرا فقد كان بعضهم يحييني ويعرض علي خدماته قائلا: أي خدمة يابن العم؟!

كانت مجاملات لطيفة بادلتها بتحية الشكر بيدي ووضعها على قلبي عرفانا منهم للطفهم.

شاهدت أمام المحلات وجود أكشاك صغيرة من الخشب قريبة من خط الإسفلت الصغير تقع في منتصفها مسطبة لبيع القات وهي منتشرة على طول الطريق بمسافات متباعدة، هذا القات الذي يأتي يوميا من إثيوبيا بلا انقطاع، ولأني لم أجد شيئا يستحق المشاهدة في ذلك الشارع فقد قررت الذهاب إلى مركز المدينة التجاري الذي كنت قد قرأته عنه في المصادر القليلة التي كتبت عن جيبوتي والأماكن التي تصلح للارتياد كعادتي في كل بلد أذهب إليه، فقررت أن استقل سيارة أجرة للمشوار.

كان مشواري مع "عم حسن" سائق التاكسي مفيدا لي حيث يتقن العربية بلهجة يمنية، سألته مداعبا إن كان من العفر أو من العيسى، فأخبرني أنه من العيسى، وكنت أعني أكبر قبيلتين في جيبوتي, إلى جانب مجموعة عرقية أخرى هربت من الحروب في الصومال وإثيوبيان حيث أن العيسى يشكلون ثلثي السكان وهم من الصومال بينما العفر يشكلون كمساحة

جغرافية معظم أراضي جيبوتي بينما يشكلون ثلث سكان جيبوتي وكنت قد قرأت أنهم أنهم من أصول يمنية تنتمي إلى المعافرة وهي بطن من مهرة بن حيدان قضاعة حمير من القحطانية من مهرة باليمن ومع تزواجهم مع السكان في المنطقة نشأت قبيلة العفر التي تحتل مناطق واسعة في إثيوبيا وارتريا وجيبوتي وعرفت بالتاريخ باسم الدناكل نسبة إلى أحد ملوكهم "دنكلي بن ملكان" أو بأسماء ممالك "عدل" أو "عدعلي".

بما أن عم حسن يجيد التحدث بالعربية بطلاقة فقد قررت أن يكون مرافقي الدائم وأن يأخذني بجولة على مناطق "جيبوتي", لكن قبلها علي أن أتناول بعض الطعام فأخذني إلى كافتيريا قريبة، قبل أن يأخذني في جولة حول أرجاء المدينة بينما كنت ألتقط الصور بكاميرتي أثناء السير.

مررنا على ساحل البحر الذي كانت أشعة الشمس القوية تعكسها سطوح البحر الهادئة في خليج "تاجوراء" الذي يشكل مرفأ مثاليا منذ أن اختاره الفرنسيون عام 1892 ليكون ميناء جيبوتي هو عاصمة البلاد بدلا من "أُبُخ"

عم حسن سائق التاكسي أثناء تنازله الإفطار معي

أو "أوبوك" التي تقع في الجهة الشمالية المقابلة لخليج "تاجوراء".

ـــ هذا هو النادي الفرنسي لليخوت

كان يشير بيده إلى الجهة اليسرى حيث يقع رصيف غير كبير تصطف أمامه مجموعة من اليخوت الصغيرة البيضاء والقوارب الصغيرة غير الخشبية،

كان الرصيف يوحي أنه مكان راق مقارنة بالمدينة كلها التي لا توحي بأنها عاصمة لبلد مهم جغرافيا واقتصاديا في المنطقة.

منذ استقلال جيبوتي في سبعينات القرن الماضي كان يمكن أن يصبح أفضل حالا مما هو عليه فباستثناء فترة الحرب الأهلية لثلاث سنوات في فترة التسعينات لم تكن هناك معوقات تمنع تطوير البلاد واستثمار عائدات الميناء الذي أصبح نقطة ترانزيت عالمية بالإضافة إلى عمليات التهريب لكل شيء يبيعه لكل الدول المجاورة بما فيها اليمن.

منذ استقلال "جيبوتي" في سبعينات القرن الماضي كان يمكن أن يصبح أفضل حالا مما هو عليه, فباستثناء فترة الحرب الأهلية لثلاث سنوات في فترة التسعينات لم تكن هناك معوقات تمنع تطوير البلاد واستثمارعائدات

الميناء الذي أصبح نقطة ترانزيت عالمية, بالإضافة إلى عمليات التهريب لكل شيء يبيعه لكل الدول المجاورة بما فيها اليمن.

كنا قد وصلنا إلى السوق المركزي المسمى باسم "محمود حربي" وهو أحد أبرز السياسيين الذين ناضلوا من أجل استقلال البلاد من فرنسا وضمها إلى

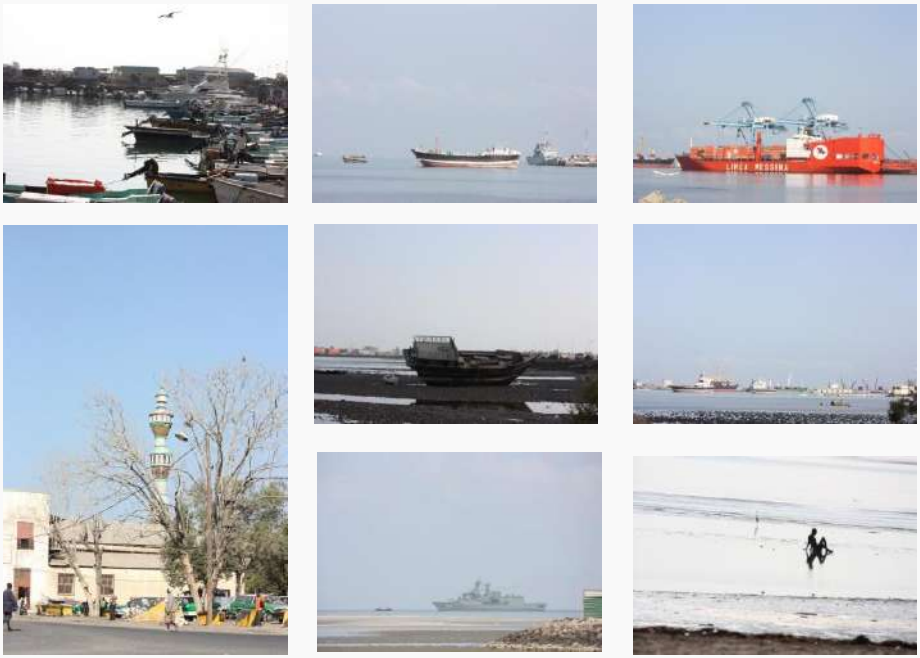

صور مختلفة للميناء والنادري الفرنسي لليخوت التي تمثل منطقة راقية في جيبوتي

"الصومال"، السوق يحوي بعض المباني ذات الدور والدورين بينما تصطف أمامها بعض الأكشاك الخشبية, أو من الزنك والمغطاة بأكياس زرقاء بالإضافة إلى بعض البسطات الأرضية التي تضللها مضلات كبيرة تقي من حرارة الشمس.

بعض شوارع المدينة وتظهر بعض الشركات اليمنية المعروفة التي لديها فروع هناك

ــ التجارة في جيبوتي تعتمد على اليمنيين وهم من أسس هذا السوق منذ بدايات تحولها إلى عاصمة، معظم البنايات القديمة في السوق بناها اليمنيون.

أشار " عم حسن" بيده إلى الأمام حيث نسير بين صفوف المحلات والأكشاك وهو يقول:

ــ هذا جامع حمودي

بينما كنت أتأمل الجامع الأبيض ذي المئذنة العريضة البيضاء والتي يحيطها طابقين من الأخشاب المطلية باللون السماوي كان عم حسن يستطرد:

ــ هذا الجامع بناه الحاج "الحمودي" عام 1905 وهو يمني.

بدأت هجرة اليمنيين إلى جيبوتي قبل أن يصبح هذا اسمها, بل حتى قبل أن تصبح جيبوتي هي العاصمة، بمجرد أن شعر اليمنيون بخطوات التنظيم والسيطرة الفرنسية على الإقليم حتى بدأوا بالتوافد على أوبوك العاصمة القديمة لممارسة التجارة التي يتقنها اليمنيون بالفطرة, وكان معظمهم من تهامة، ثم مع تحول العاصمة إلى "جيبوتي", بدأ أبناء تعز وما حولها

صورة تظهر جامع حمودي في قلب السوق المركزي لجيبوتي

بالقدوم ثم أبناء "حضرموت" إلى درجة أن اليمنيين شكلوا نصف سكان العاصمة "جيبوتي" بعد فترة الحرب العالمية الأولى. وكانوا يمتلكون معظم التجارة وثلاثة أرباع المباني في العاصمة.

شاهدت أثناء التجول بعض الشركات اليمنية المعروفة مثل البنك الزراعي اليمني وغيره من الأسماء التجارية اليمنية، وعندما لاحظ عم حسن هذا، قال لي:

ــ حتى على مستوى البضائع جميع ما تستهلكه يأتي من اليمن بما فيها المواد الغذائية المعلبة، بينما الخضروات والفواكه تأتي إلينا من إثيوبيا.

كنت أعلم أن ميناء جيبوتي يعتمد بدرجة أولى على البضائع الإثيوبية بحكم أنها لا تملك منفذا بريا, حيث أن 80% من حركة ميناء "جيبوتي" خاصة بإثيوبيا التي يربطها معها خط سكة حديد يعود إلى فترة الاستعمار الفرنسي وهو ما يسهل إيضا عملية جذب الخضار والفواكه الإثيوبية وكذلك القات بشكل يومي.

بعد انتهاء جولتنا في السوق المركزي الصغير نسبيا طلبت من عم "حسن" إعادتي إلى الفندق على أن أتصل به في اليوم التالي للذهاب إلى السفارة الصينية، وبعد أخذ غفوة قصيرة قررت الذهاب لتناول العشاء وكنت قد رأيت في نفس الشارع بعض المطاعم إلا أن أحدها قد لفت نظري بحروف عربية "مطعم السوابع" ولم أكن أعي معنى الاسم لكني أحسست أنه اسم

جزيرة في البحر ولم أكن أتخيل أني سأرى السوابع بنفسي وسط البحر كما سأذكر لاحقا، كان المطعم على غرار المطاعم الشعبية التي تقدم الوجبات البحرية في اليمن, وهكذا انتهى يومي مبكرا في "جيبوتي" حيث لا مكان أذهب أو أتحول به مساءا.

في اليوم التالي نهضت مبكرا واتصلت بعم "حسن" الذي جاء بسرعة يقود سيارته التي يبدو أنه لا يهتم بإصلاح أي شيء ينكسر بها على الرغم من أنها موديل حديث نسبيا، وبعد تناولنا للإفطار في نفس كافتيريا اليوم السابق توجهنا إلى حي السفارات كما أخبرني عم حسن بلهجته اليمنية التي يغلب عليها الطابع العدني، كان الحي عبارة عن شوارع واسعة تقبع بها بعض المنازل الصغيرة بأحواش وأشجار قليلة ومتناثرة لكن الشيء الذي جعلني أندهش هو أن معظم شوارع وتفرعات الحي كانت ترابية.

ـــ هذا منزل السفير اليمني

منزل السفير اليمني في حي السفارات يعلوه العلم اليمني

كان يشير هم حسن إلى أحد المنازل بحوش كبير نسبيا, وتحيطه أشجار كثيفة ترتفع خلف مدخله سارية طويلة تحمل العلم اليمني الذي كان منسدلا على عمود السارية بسبب خمول الريح آنذاك، كان المنزل الأفضل في ذلك الحي ولا أدري هل كان منزل السفير فعلا أم كان السفارة.

عند العودة لاستلام المعاملة بعد الظهيرة وجدت صديقا أعرفه يقدم أوراقه مع رفيق له, إلا أنهم نسوا بعض الأوراق في الفندق وهو بالمصادفة نفس

الفندق الذي أسكن به, فقمت بعرض تاكسي عم حسن لإيصالهم إلى الفندق وإعادتهم بسبب انقطاع منطقة السفارات وبعدها عن مركز المدينة وغياب مرور السيارات بها، وعند عودتهم قمنا بعمل جولة سريعة ريثما تنتهي معاملاتهما.

عند استلام المعاملات تحدثنا عن مغادرة "جيبوتي" إلا أن المشكلة هي أن موعد الطائرة الوحيدة المغادرة إلى "اليمن" هو يوم الأربعاء ومن الصعب الانتظار لخمسة أيام، فاقترحت عليهم فكرة مجنونة هي السفر بحرا ولم أكن أملك أية معلومات عن إمكانية هذا من عدمه, أوحتى نوعية السفن، لكني من خلال حديثي مع سائقي عم "حسن" علمت عن تحرك السفن من وإلى اليمن بشكل دائم لنقل البضائع والمسافرين بين البلدين، وبعد موافقة صديقي ومرافقه على فكرتي, قام عم "حسن" باصطحابنا إلى الميناء وبعد السؤال أرشدونا إلى شخص يبدو أنه يمني, عرفنا أنه قبطان السفينة التي تقبع راسية خلفه وهي من النوع الخشبي الذي يسمى "السنبوق"، وكان منشغلا بمراقبة تحميل مجموعة كبيرة من الأبقار إلى السفينة يتم رفعها برافعة كبيرة واحدة تلو الأخرى، وبعد الاتفاق على السعر الذي كان مفاجئا لنا بسبب انخفاضه ويعادل أجرة التنقل بين المدن اليمنية آنذاك, أخبرنا

القبطان أن الإبحار سيكون عند منتصف الليل وهذا يعني أن أمامنا الكثير من الوقت للراحة والاستعداد.

بعد صلاة العشاء وتناول عشائنا وصلنا إلى الميناء, قمت بتوديع عم "حسن" الرجل الطيب والودود والذي كان رفيقا رائعا بخلقه الرفيع الذي يعكس حسن خلق الجيبوتيين وبساطتهم, وقد احتضنني بحب وهو يودعني. وقد وفر علي عم "حسن" الكثير من الجهد والمال مع قلة سيارات الأجرة وبعد المشاوير, وقد اعترف لي صديقي بحسن اختياري لعم "حسن" وكذلك باتباع فكرة سيارة الأجرة الواحدة, فهي توفر الجهد والمال خصوصا مع سائق أمين وطيب.

أتممنا معاملات ختم الجوازات ورفع حقائبنا إلى السفينة، وعند صعودنا على ظهر السفينة كان هناك مجموعة كبيرة من الرجال والنساء سيبحرون معنا، وتم تقسيمنا على يمين كابينة الدفة للرجال, والنساء في الجهة المقابلة , مع منح كل شخص لحافا كفراش وشرشفا كغطاء مع مخدة بينما كانت الأبقار تستقر في طابقي السفينة السفليين وكنا نشم رائحة الأبقار إلا أن القبطان أخبرنا بأن الرائحة ستختفي وقت الإبحار.

ولما لم يكن لدينا ما نفعله بعد الإبحار اتجه الجميع إلى النوم تحت نجوم خليج عدن ماعدا طاقم السفينة، بينما كنت أحاول طمأنة نفسي بأنَّ كل شيء سيكون على ما يرام في هذه المغامرة غير المأمونة العواقب, وهكذا غفوت سريعا دون أن أشعر بأي شيء على الإطلاق, حتى سمعت بعض الأصوات الناجمة عن الحركة تأتي من بعيد وعندما فتحت عينيّ رأيت أمامي أجمل مشهد رأيته في حياتي على الإطلاق,والشمس تحـــاول أن تنهض من داخل المياه التي كانت تتروح ألوانها بين الأسود والذهبي بشكل خيالي وكأن الشمس تحاول أن تخلع ألوانها بحجمها العملاق، لم أستهلك الكثير من الوقت وأنا ألتقط من حقيبتي كاميرا التصوير لالتقاط صور المشهد الخيالي.

ومع شروق الشمس بشكل كامل أحضر لنا طاقم السفينة طعام الإفطار المكون من البيض وخبز الطاوة وشاهي الحليب على الطريقة اليمنية وهي ضيافة منهم لم نتفق عليها, ولم نكن نعلم أن الرحلة تتضمن هذا نظرا لتكلفة الرحلة المنخفضة التي تقارب سعر رحلة بين عدن وصنعاء في حافلات النقل المكيفة، كان الفطار شهيا وهو ماجعلني أتفائل في بداية اليوم, والمدهش في الأمر أن رائحة الأبقار ومخلفاتها اختفت تمام حتى أننا نسينا أنها تقبع تحتنا تماما.

لقطة صباحية من على ظهر السنبوق

شروق الشمس في بحر العرب

ولأني لم أكن أعرف السرعة التي تسير بها السفينة أو مقدار المسافة التي كنت أسمع عن قربها من قصص الشارع والحكايات التي يتناولها اليمنيون, وخصوصا عن حكايات هروب بعض المسؤولين أثناء الحروب بمدة أقصاها ساعتين أو ثلاثة, فقد توقعت أننا قد دخلنا في المياه اليمنية الإقليمية, ومع

اقتراب الظهيرة شاهدنا مجموعة من الجبال تبدو بعيدا في الأفق فتوقعت من جهلي أنها الحدود اليمنية لكن القبطان أخبرنا أنها جزر "السوابع", فتذكرت المطعم الذي أكلت به في العاصمة جيبوتي ويحمل نفس الاسم, ولم يكن يعرف القبطان لمن تعود هذه الجزر ولأي دولة رغم خبرته وقدراته العالية في الإبحار ومعرفة الاتجاهات, وكنا نراقب مجموعة الجزر وهي تقترب بشكل تدريجي وكأننا في فيلم سينمائي ثلاثي الأبعاد على شاكلة أفلام "أفاتار" الشهيرة.

مجموعة من الجبال البركانية الجرداء تنتصب في عمق البحار عددها ستة جبال تشكل مع شبه جزيرة "سيان" الجيبوتية جزر الأخوات السبع أو السوابع باللهجات المحلية تمتد إلى مسافة عشرة كيلومترات في مسافات متراوحة بين كل جزيرة وأخرى وهي في الأصل ستة جزر تشكل رأس شبه جزيرة "سيان" في اليابسة الجيبوتية الجزيرة السابعة والمسافة بين أول جزيرة ورأس "سيان" تبلغ أربعة ونصف كيلومترات, مجموعة "السوابع" تشكل تقريبا نصف المسافة بين ميناء "جيبوتي" وميناء "المخا". وكنا قد تجاوزنا خليج "تاجوراء" ببضعة أميال باتجاه شمال "جيبوتي" حينما

اعترضت طريقنا جبال السوابع التي تقع ضمن مقاطعة "أُبُخ" العاصمة القديمة للبلاد. وكنا نشاهد الجبال باندهاش وهي تقترب أو بالأصح كنا نحن من نقترب وهي تمتد من عمق البحر كحوريات شاهقة بلا حراك, وكدت أكتفي بالتصوير إلا أنه خطر لي سؤال عن لي للقبطان عن كيفية الابحار ونحن نقترب من وسط الجبال الجزيرية فأخبرني بلهجة الواثق بأن أفضل مكان للعبور هو بين الجزيرة الثالثة والرابعة, حيث أضحت الجزيرتان أكثر وضوحا بينما اختفت باقي الجزر حتى وصلنا إلى حضن الجزيرتين فعبرنا وأنا مندهش وسط مشاهد الجبلين العملاقين وسط مياه الملح العميقة التي تجرفنا فوقها, وهكذا رويدا رويدا تجاوزنا السوابع المدهشة التي يستخدمها هواة الغوص في العالم مكانا مثاليا لممارسة هواياتهم المفضلة لكننا بطبيعة الحال لم نشاهدهم حينها.

مجموعة جزر السوابع فى المياه الجيبوتية

بعد تجاوز "السوابع" عاد البحر يحيطنا من كل جانب وسط أشعة الشمس القوية التي فضلنا أن نتوارى عنها تحت ظلال الكبينة, ونحن نتجاذب الأحاديث تارة مع القبطان وطاقمه الودوين وتارة مع بعض المسافرين الذي كان بعضهم يمنيا وبعضهم من "إثيبويا" أو مزيج بين هذا وذاك لمولدين من الجنسيتين يذهبون لزيارة عوائلهم, أو ربما لجلب بضائع أو لبيع أخرى جلبوها معهم, وكان البحارة يشرحون لنا عن قيادة دفة السفينة عندما أخبرنا القبطان بأن السفينة تستغرق عادة نصف يوم في رحلتها إلا أن مروحة السفينة تعاني من اعوجاج بسيط, يجعله يقوم بتخفيض السرعة

وهذا الاعوجاج يسبب صوتا خفيفا مكتوما عند دورانها وسط المياه وهو ماشعرنا به بالفعل عندما أخبرنا, وفي الحقيقة لم يكن هذا يشكل عائقا أمامنا فالرحلة جميلة رغم غموضها وغرابتها.

وبمجرد خروجنا من السوابع بمسافة بسيطة شاهدت البحارة وهم يسحبون حبل الصنارة الذي كانوا قد وضعوه في الصباح ويقومون بإخراج سمكة كبيرة تتراوح ألوانها بين الأصفر والأخضر, أخبرونا أن اسمها "العنفلوص" وتسميه بعض الدول العربية باسم "اللمبوكة" أما اسمها العالمي فهو "ماهي ماهي" من أنواع سمك الدلافين الاستوائية وشبه الاستوائية, وسمح لي البحارة اللطفاء بالتقاط الصور للسمكة وكذلك سمكة أخرى لم أتمكن من سؤالهم عن اسمها لكنها شهية كذلك, ثم عدت للأحاديث الجانبية بين وبين صديقي الذي كنت أعرفه وكذلك مع صديقه, وهو من صنعاء القديمة حتى فوجئنا بأن أحضر لنا البحارة طعام الغداء المكون من الأرز وإدام سمك "العنفلوص" المصطادة قبل ساعة, وكان الطعام شهيا ووفيرا لجميع ركاب السفينة وكان البحارة يعاملوننا وكأننا ضيوفا لهم ويلحون علينا بالأكل وهم يأكلون معنا وكانت من أفضل الوجبات التي أكلتها في حياتي بحق, وبعد الغداء أحضروا لنا الشاي الأحمر ورغم أن وجبة السمك الشهية تستلزم

النوم إلا أن دهشة الرحلة وارتفاع الأدرينالين في دمي لم نفكر جميعنا بالنوم, وظللنا نتجاذب أطراف الحديث حتى أزفت الدهشة الكبرى بالنسبة لي في حياتي والتي لن تتكرر مجددا حسب اعتقادي.

سمك العفنلوص الذي اصطاده القبطان للغداء

كان الموعد بعد العصر عندما أخبرنا القبطان عن اقترابنا من مضيق باب المندب, مضيق البكاء حسب بعض الأساطير, وإن كان البعض يرى أنها تعني العبور والمجاز حسب المساند الحميرية, ولأننا عبرنا من الجنوب من وسط جزر السوابع فإن اتجاهنا كان يميل إلى الشرق رويدا رويدا عن وصلنا إلى منتصف قناة المضيق التي تبلغ ثلاثون كيلومترا من أقرب نقطتين بين البر اليمني في رأس "منهالي" وجزيرة "سيان" الجيبوتية التي تعتبر أحد جزر السوابع كما أسلفت, وإن كانت تقع إلى الجنوب قليلا من مستوى البر اليمني, ومع المزيد من البحار بدأت جزيرة "ميون" تتضح لنا وهي تمتد من الجنوب إلى الشمال, وتقسم المضيق إلى قسمين الداخلي تسمى "باب إسكندر" بثلاثة كيلومترات والخارجي بأكثر من خمسة وعشرين كيلومتر تسمى "دقة المايون" ولهذا فالإبحار يقع في المياه الإقليمية اليمنية وهو ممر دولي لا تملك اليمن أي سيطرة عليه, وقمت بالتقاط أفضل صورة لي وأزعم أنها الوحيدة لكامل مضيق باب المندب من الشمال إلى الجنوب مع كامل جزيرة ميون, ويحق لي أن أفتحر بهذه الصورة.

صورة التقطتها لكامل مضيق باب المندب مع كامل جزيرة ميون قد تكون الصورة الوحيدة في الإنترنت

مضيق "باب المندب" الذي لطالما سمعت عنه في قصص السياسة والتاريخ والجدل والتشطير والوحدة, منذ أن اعتمد نقطة التقسيم بين البريطانيين والعثمانيين الأتراك لشطري اليمن عام 1905م وتم اعتمادها عام 1915م, وهأنا اليوم أمر من منتصفه وكأني قائد تاريخي لأسطول يمني عريق ملأ البحر والأرض بأمجاده لكن لم تلبث أخبار الفوضى والمظاهرات تتصاعد في

مخيلتي, حتى عدت على بحر الواقع وسط أمواج المضيق, كنت ألتقط الصور بكثرة وكأني أخشى فقدان اللحظة البصرية الفارقة والمدهشة في ذهني خصوصا لجزيرة "ميون" التي تقبع كجنين في بطن أمه, وبالخلف منه تشرأب قمم جبل "الشيخ سعيد" في البر اليمني التي لا تقل أهميتها عن جزيرة "ميون", حيث تشرف بارتفاعاتها الشاهقة على كامل مساحة المضيق وكان محل صراع بين البريطانيين والعثمانيين ثم الأئمة.

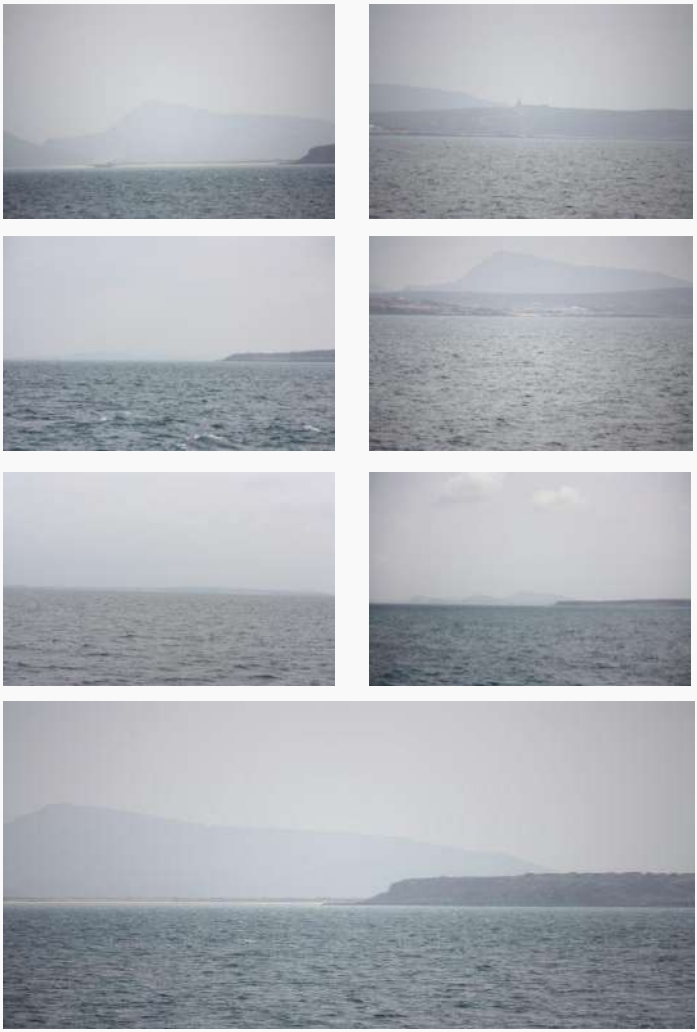

لقطات عن قرب لمضيق باب المندب وجزيرة ميون وتظهر جبال الشيخ سعيد في البر اليمني

استغرق عبورنا مضيق باب المندب كاملا من الجنوب وحتى الشمال وقتا طويلا, بسبب بعد المسافة استغرقتها بعوامل الانبهار والاعجاب, وأنا ألتقط الصورالوحيدة على الإطلاق لكامل المضيق مع جزيرة ميون حسب اعتقادي, ومع بدء أول حلقات الغروب المنسدلة علينا ومع أكواب الشاهي الحليب التي أكرمنا بها البحارة كان الليل مؤذنا بالهدوء وانتظار الوصول الذي تأخر, وأصبحنا نترقب إلى الوصول بفارغ الصبر وهو ماتم بعد الساعة الثامنة ليلا بعد عشرين ساعة ممتعة من الابحار الجميل, وهاهو ميناء "المخا" يصل إلى حدود أنظارنا ولا يبدو منه مايستحق النظر سوى زوجين من الخزانات العملاقة, أما باقي المباني فلا تدل على وجود ميناء تاريخي نشر روائح البن وكيفه في كل العالم واليوم يصبح ممرا خلفيا لتجارة الأبقار والمعلبات بين اليمن وشرق أفريقيا, رغم أنه تاريخيا كان يفتقد لأي تطور لكن الظروف التاريخية ساعدته لكي يصبح شهيرا ودفعتني لأن أوثق له أمجاده في روايتي "موكا سيتي".

بعد وصولنا وإنجاز معاملاتنا بطريقة سلسة, وهو ماكنت ألحظه في المطارات اليمنية, واليوم شاهدت هذا في الميناء رغم بوادر التأزم السياسي, وبعد توديعنا للبحارة وشكرنا لهم على كل ماقدموه لنا, ونحن

نعتبرها ضيافة وليست خدمة بمقابل بسيط تعكس أخلاق اليمنيين البسيطة الخالية من الاحتكار والفوقية والاستغلال رغم قدرتهم, كان شقيق صديقنا ينتظرنا داخل الميناء, وقد فوجئنا به بعد أن أخبرنا أن ضباط الأمن سمحوا له بالدخول بعد فترة انتظاره الطويلة بالخارج وفورا تحركت بنا السيارة التي تقلني مع صديقي وشقيقه وصديقه الصنعاني إلى عدن التي سيبقى بها في ضيافة صديقي ليومين ثم سيسافر إلى "صنعاء", وفي "عدن" يختفي كل الكلام ويصمت الليل في سكون الجمال والروعة وهي تسبح في مياه خليجها الذي أبحرت فيه لعشرين ساعة في رحلة بلا تخطيط وبلا حدود للدهشة والجمال بها.

غروب الشمس على مشارف مدينة المخا

مدينة المخا وبؤس الحال من البحر واحدة من الأسباب التي دفعتني لكتابة رواية موكا سيتي

المطاعم اليمنية.. سفارات فوق العادة

المطاعم اليمنية.. سفارات فوق العادة

منذ عقود طويلة من باب عدم المبالغة لم يستطع اليمني أن ينقل موروثه أو تقاليده بشكل واضح كما فعل عن طريق المطاعم, التي أصبحت ماركة مسجلة وأسلوبا يمنيا مميزا وصارت المطاعم اليمنية تغطي مدنا ومناطق عديدة حول العالم أكثر من السفارات والقنصليات الرسمية .

مطعم حضرموت في مدينة جوانزو

في جمهورية الصين الشعبية يشكل اليمنيون جالية لا بأس بها من مقيمين بغرض التجارة و بالتحديد في مجال خدمة العملاء اليمنيين والعرب أو كتجار يشترون بضائعهم و يسافرون أو كطلبة مبتعثين في الجامعات الصينية , بدأ أول مطعم يمني في مدينة جوانزو الصينية في عام 2003 م تقريبا وهو مطعم سبأ وكنت شاهدا على بداية هذا المطعم قبل افتتاحه, كان في تلك الفترة مغامرة جرئية لأن هناك مطعمان قديمان يملكهما بعض العرب, وكانت هذه البداية لافتتاح الكثير من المطاعم اليمنية سواء في مدينة جوانزو أو في باقي مدن الصين التي يتواجد بها اليمنيون والعرب.

مطعم سبأ في مدينة جوانزو ومدينة إيوو

حاليا أصبحت منطقة "شياو بي" التي يقع بها عدد كبير من المطاعم اليمنية والعربية في مدينة "جوانزو" مركزا للعرب وخدمات العرب والمسلمين وصارت المنطقة تعج بالمطاعم حتى للصينيين, وبقالات بيع المأكولات الحلال وملابس المسلمين وبائعي كروت الإتصال وصرف العملات كذلك, وصارت المنطقة مع مرور الوقت مركزا لسكن الأجانب وخصوصا من الأفارقة الذي يملأون مباني الشوارع المحيطة أو في فنادقها المتعددة مما غدت معه المنطقة عالما مختلفا داخل حدود المدينة, و الفضل في هذا بعد الله لليمنيين الذين كانوا من أوائل من سكنها و استثمر بها وإن كان تأثير المنطقة قد خف مع مرور الوقت لكنها مازالت تستقطب الأجانب من العرب والمسلمين وغيرهم.

وعلى طاولات المطاعم اليمنية في مدينة "جوانزو" التقيت بالكثير من الأشخاص من مختلف الجنسيات ودارت الكثير من النقاشات سواءا كانوا أصدقاء لي أو جمعتنا الطاولات لسبر أغوار التعارف والنقاشات, حيث تمتاز الأكلات والأطباق اليمنية عن باقي الأكلات العربية بتنوعها وتعدد أصنافها ولذلك نرى الكثير من العرب يفضلون الأكلات اليمنية على غيرها من الاكلات العربية , وقد بدأت المطاعم اليمنية في الصين مع بداية اتجاه

الناس للصين وبداية الحركة التجارية المتصاعدة والقوية بين الدول العربية والصين , وتميزت المطاعم اليمنية بمواقعها الجيدة في مدينة جوانزو ومدينة إيوو مما جعل إقبال الناس عليها كبير ، ومما ميزها ايضاً أنها بدأت في وقت كانت المطاعم في الصين قليلة وتعد بعدد أصابع اليد, وتقدم المطاعم اليمنية في قائمة وجباتها جميع الأكلات اليمنية المشهورة سواء في وجبة الإفطار أو الغداء و العشاء, و مايميزها عن غيرها من المطاعم أنه بإمكانك الحصول على أي وجبة في أي وقت على عكس بقية المطاعم العربية التي تضع جدولا لوجباتها التي تقدمها يوميا أو تقدم وجبات محدودة , بالإضافة لأن المطاعم اليمنية كما هي خصائص الأكل اليمني تقدم الطعام حارا ومطبوخا بصورة جيدة, وتتميز بجودة اللحم المأخوذ من مواشي طازجة صغيرة في السن. وإن كان البعض ينتقد على المطاعم اليمنية أنها ما زالت تعيش في نمطيتها القديمة كمطاعم شعبية, ورغم توفر ديكورات راقية في بعض المطاعم اليمنية إلا أن خدماتها شعبية, رغم أنها حلت مشاكل الأكل للجالية العربية عامة و اليمنية خاصة التي كانت تعاني منها الجالية العربية والإسلامية قبل وجود المطاعم في الأكل كثير جدا نتجة اختلاف الأكل ونكهاته أو الخوف من عدم مطابقته للمعايير الإسلامية, ولكن

للأسف ينقص المطاعم اليمنية التنظيم والترتيب مثل مطاعم الأخوة السورية واللبنانية التي تهتم بكل مايتم تقديمه على مستوى التغذية البصرية في الأكل وتقديمه وشكل الأطباق والموظفين. بالرغم من الإقبال الشديد على الأكل اليمني لأنة يعتبر مرغوبا عند أغلب أبناء الجالية العربية وبالذات دول الخليج لأنهم ينقصهم الخبرة الموجودة عند أبناء بقية الجاليات وهذا شي مهم نتمني منهم الاهتمام بالترتيب والنظافة والخدمة الجيدة, فكل المطاعم اليمنية في الصين تدار بطريقة شعبية وتقليدية جداً وينقصها طاقم إداري يسعى الى تطويرها وتقديم خدمة متميزة لزوارها وكذلك يلحظ الزائر للمطاعم اليمنية أنها مطاعم شعبية لا تهتم بنظافة المكان, ولا بنظافة المأكولات ولو استطاعت المطاعم اليمنية في الصين تجاوز هاتين السلبيتين لأصبحت مطاعم درجة أولى ولتجاوزت الكثير من المطاعم الأخرى .

وأن تنتقل المطاعم اليمنية إلى الخطوة التالية وهي خطوة التميز وتقديم الخدمات النوعية, وأن تتوقف مرحلة الإنتشار و الإكتفاء بتقديم الخدمة و حاجة الناس لهذه الخدمة المقدمة , و هذا يعتمد بصورة أساسية على وجود

مستثمر يدخل سوق المطاعم لمنافسة بقية المطاعم الأجنبية بأسلوب حديث و عصري مع المحافظة على تقديم الوجبات اليمنية المميزة و التي أصبحت معروفة في مناطق واسعة من العالم و في نفس الوقت المنافسة بالأسعار و استهداف أكبر قدر من العملاء , و هي مفارقات ربما يصعب الوصول إليها نظريا و لكنها تحتاج لمستثمر مغامر كما كانت البداية ذات مرة, وكنت قد استفسرت من بعض أصدقائي أصحاب المطاعم اليمنية في جوانزو عن إمكانية تطوير المطاعم من حيث الخدمات إلا أنهم يرون أن المطاعم اليمنية تستهدف طبقات أكثر وهي مزحومة بشكل كامل و هي الأكبر في المساحة و الحجم و استقبال الزبائن بعكس المطاعم الشامية و التركية على سبيل المثال التي تكون صغيرة الحجم و أسعارها غالية , فالزبون اليمني و الخليجي لا يعجبه إلا المطعم اليمني و كذلك من بعض أبناء الجاليات الأخرى بينما بقية المطاعم يرتادها من باب التغيير فقط , فروتينية تعاملها و أسعارها الغالية يجعلها نخبوية , أما المطاعم اليمنية فهي مزحومة بشكل متواصل و لابد أن يكون هناك بعض القصور و لكنها رغم هذا تقدم خدماتها بشكل سريع و أسعارها أقل من بقية المطاعم كما أن طبيعة الأكل اليمني هي أكلات شعبية فمن غير الممكن أن يرتدي المباشرون ربطات العنق و أن

يكون المطعم فخما , فنحن نستهدف كل الجنسيات و مطعمنا مليء بكل الأجانب مسلمون و غير مسلمين .

و مع انتشار اليمنيين والعرب في مناطق مختلفة بالصين, فقد رافقت هذا الإنتشار بطبيعة الحال المطاعم اليمنية التي فتحت بعضها فروعا لها

وخصوصا في المدن التي تشهد تواجد اليمنيين مثل مدينة "إيوو" مقاطعة "زيجيانغ" شرق "الصين" التي أصبحت سوقا كبيرا للعرب والأجانب, رغم صغر المدينة والمطاعم اليمنية كثيرة في هذه المدينة مثل مطعم سبأ الذي كان ثاني أقدم مطعم عربي في تلك المدينة وأقدم مطعم يمني ورغم أن المدينة صغيرة إلا أن المطاعم اليمنية انتشرت بشكل كبير و كذلك المقاهي اليمنية التي تقدم الوجبات الخفيفة والشيشة للعرب وغيرهم, وكذلك في مدينة "فوشان" التي تقع بالقرب من مدينة "جوانزو" وتعتبر مدينة الأثاث والمواد الصحية والسيراميك حيث يجد العرب بشكل عام فرصتهم في تناول الأكل الحلال , ومدينة "شيشي" في مقاطعة "فوجيان" جنوب شرق الصين توجد جالية يمنية وعربية لا بأس بها وتوجد بعض المطاعم اليمنية والعربية التي تخدم الجالية هناك و لو بصورة مبسطة, نظرا لعددهم و كذلك لأن المقاطعة ليست مركزا للإقامة كما هو الحال في "جوانزو" أو "إيوو" باستثناء أصحاب الأعمال التجارية من اليمنيين أو العرب و غيرهم , وهذا سمح للمطاعم اليمنية أن تقدم خدماتها لشرائح أكبر من الناس فهي مزدحمة في أوقات المواسم من السائحين والزائرين وغير المواسم تشهد إقبالا من المقيمين وبالتالي تستطيع أن تدفع إيجارات مرتفعة لتواجدها في

مناطق حيوية ومزدحمة على عكس باقي الجنسيات التي تكون مطاعمها في أماكن بعيدة أو ذات موقع خاص كحديقة أو مبنى بالكامل وأسعارها مرتفعة على عكس المطاعم اليمنية التي تستهدف شريحة أكبر بأسعار أقل, ويحب الكثير من القادمين العرب تناول الطعام في المطاعم اليمنية, وطالما اجتمعت بها مع الكثيرين منهم وخضت الكثير من الحوارات والنقاشات الجميلة.

جوانزو .. مدينة اللؤلؤ الساحرة

جوانزو .. مدينة اللؤلؤ الساحرة

أحببت هذه المدينة الجميلة لدرجة أني اعتبرتها مدينتي منذ الوهلة الأولى وكنت أصاب بالحزن في كل مرة أعرف أن هناك مدنا في الصين أكبر منها حجما وأكثر ثراءًا وتنظيما كأني أحد أبنائها, لكنها تبقى مدينتي الجميلة والثرية والمنظمة, فأخذت أبحث عن في تاريخها وحضارتها كمدخل لمعرفة الصين.

ذات يوم من أيام الصيف الساخنة التي تميز مدينة جوانزو قمت بإيقاف أحد سيارات التاكسي فتوقف تاكسي أخضر وهذا له دلالة في أنظمة المدينة تدل أن سائق التاكسي من أبناء المدينة على عكس الألوان الأخرى التي تعني أن سائقيها جاءوا من مدن ومقاطعات أخرى سكنوا مدينة جوانزو, وكعادة سائقي التاكسي الصينيين في المدينة يبدأ في سؤالي عن بلدي وعن فترة إقامتي في الصين. وهي أسئلة نمطية مكررة لا تختلف كثيرا من سائق لآخر, لكن هذا السائق عندما عرف بأني (ألابو) وتعني بأني عربي حتى أخبرني بأن أصوله البعيدة من مئات السنين عربية, وحتما عندما نقول

عربية فإننا نعني يمني بكل تأكيد لدور اليمنيين التاريخي وموقع اليمن الجغرافي الذي ساعد على التواصل بشكل جيد مع المدن الآسيوية والإفريقية, ولأنه لم تسنح لي الفرصة لمقابلة مسلمين من مدينة جوانزو رغم علمي بوجودهم, وقد قرأت عن هذا تاريخيا, لكني ترددت في استيعاب كلام السائق وظننت أنه من مقاطعات أخرى مشهورة بوجود المسلمين فيها وقابلت العشرات منهم إلا أنه أكد لي كلامه وأنه يسكن في منطقة (جوانتا لو) التي تعني شارع المنارة, ولعلمي بهذا الشارع ووجود أقدم مسجد به في جوانزو فقد استوعبت حديثه, وفي الحقيقة فالشارع يوحي بشكل واضح بالهوية الإسلامية الصينية في وجود المحلات وأزياء السكان به كما أن الحكومة الصينية في المدينة اهتمت بتطوير الشارع وترتيبه وكذلك تطوير المسجد مع المحافظة على هيئته التاريخية وكذلك منارته التاريخية الفارعة التي أعطت اسمها للشارع باللغة الصينية وكذلك باقي الحارات المجاورة للمساجد التي زينت مداخلها بترويسات تعكس الهوية المميزة لها.

جامع روضة أبو وقاص التاريخية حيث تمتليئ في فنائه الواسع قبور المسلمين وبعضهم من العرب عبرالتاريخ

"قوانغتشو" هكذا تنطق بلعة المندرين المعروفة باسم اللغة الصينية وتكتب [illegible] في اللغات الأوروبية الإنجليزية وغيرها من المعروف أيضا باسم "كانتون" الذي كان أول الحروف اللاتينية من اللفظ الكانتوني لجواندونغ بالبرتغالية، والمعروف أيضا باسم Kwangchow. حاليًا يعرفها العرب باسم (جوانزو) كما ينطقها السكان المحليون في المدينة. وهي واحدة من المدن الخمس المركزية الوطنية ومدينة شبه إقليمية تقع في جنوب الصين في منتصف شمال مقاطعة قوانغدونغ لنهر اللؤلؤ ، على بعد حوالى 120 كلم (75 ميل) شمال غرب هونغ كونغ . وهي ثالث أكبر مدينة في الصين وعاصمة مقاطعة قوانغدونغ ، وأكبر مدينة في جنوب الصين ومفتاح النقل وميناء تجاري، وتقع على نهر اللؤلؤ وهو صالح للملاحة في بحر الصين الجنوبي. يبلغ عدد سكانها 10 ملايين نسمة، وسكان المناطق الحضرية يصل تقريبا إلى 15 مليون نسمة ، مما يجعلها أكثر المدن سكانا في المقاطعة وثالث أكبر المدن.

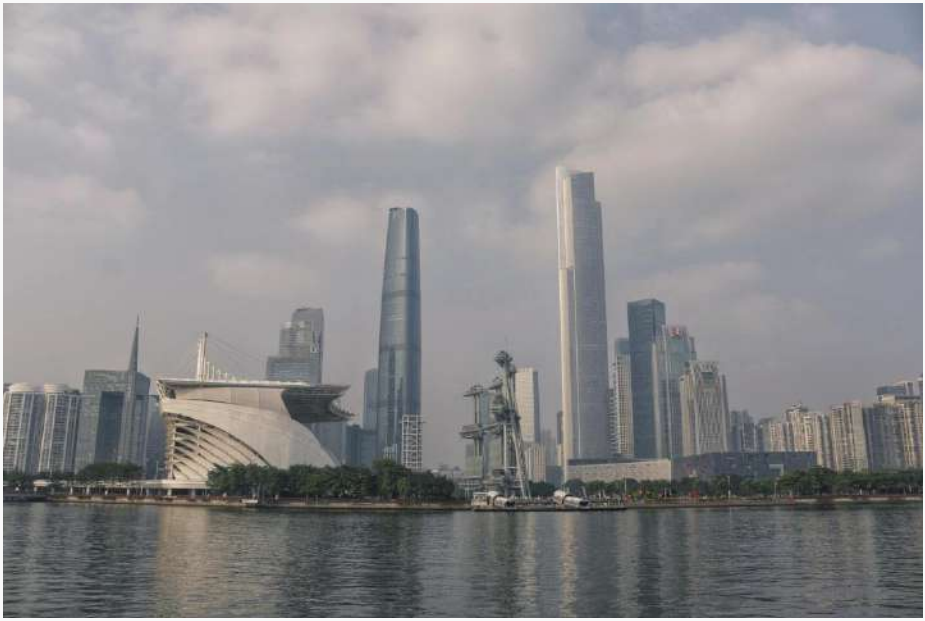

جانب حديث من مدينة جوانزو

و بالنسبة للتاريخ المدينة فإن أول مدينة بنيت في الموقع المعروف اليوم للمدينة هي Panyu Fan-Yü 番禺, **والتي تأسست في** 214 **قبل الميلاد .وقد توسعت المدينة بشكل مستمر خصوصًا عندم عندما أصبحت عاصمة لمملكة نانيو في** 206 **قبل الميلاد، و قد شملت المملكة ما يعرف بفيتنام اليوم. وضمت سلالة هان المدينة في عام 111 قبل الميلاد، وأصبحت بانيو**

عاصمة المقاطعة ولا تزال كذلك حتى اليوم. في 226 بعد الميلاد أصبحت المدينة مقر ولاية قوانغتشو الذي كان اسم ولاية وليس المدينة ومع تطورها أطلق على المدينة اسم قوانغتشو ، بدلا من بانيو. ومازال اسم بانيو يطلق على أحد مناطق جوانزو حاليًا في أطراف المدينة إلى الجنوب من هايزو و يفصل بينهما نهر اللؤلؤ .

بعض من أحياء المدينة التاريخية الجميلة

جامع الحنين إلى النبي بمنارته المميزة التي يسمى الشارع باسمها

و قد وصل البحارة العرب والفرس إلى جوانزو (كانت معروفة باسم Sin – Kalan**) أو الصين كالان في** 758 **للميلاد, وفق التأريخ الرسمي لحكومة جوانزو يوم** 30 **أكتوبر** 758**، وهو ما يعادل الشهر القمري التاسع في أول سنة من عهد الامبراطور**Suzong **من سلالة "تانغ"، والمؤرخ العربي أبو "زيد الحسن" من صيراف كتب في عام** 878**م, أن من أتباع زعيم المتمردين**

الصينية Huang Chao حاصرت المدينة و قتلوا عدد كبير من التجار الأجانب المقيمين هناك .

و قد ذكرها "ابن بطوطة" في تأريخ رحلته الشهيرة و قال بأن أشهر مدنها "كانتون", و مما قرأت في المصادر العربية عن المنطقة "كان ابن رشد و"الفقيه فرج" يتحدثان مع التاجر "أبى القاسم" الذي عاد لتوه من زيارة نائية. وكان أبو القاسم يروي قصة غريبة عن شئ ما رآه في "سين كالان" أو كانتون فقال:

ــ دار خشبية فناؤها الكبير شرفات ومقاعد تكتظ بناس ينظرون إلى منصة فوقها خمسة عشر أو عشرون شخصا غطوا وجوههم بأقنعة مطلية، وقد امتطو صهوات جياد. ولم يكن هنالك أي حصان ، وكانوا يبارزون ولم يكونوا مجانين ، أوضح أبوالقاسم ، ولكنهم كانوا يمثلون أو كانوا يفرجون حكاية .لم يفهم ابن رشد قصده، فحاول أبو القاسم أن يشرح الأمر فقال:

ــ أن أحدهم يفرج حكاية عوض أن يرويها .

– وهل كانوا يتكلمون ؟ سأل الفقيه .

– نعم ، أجاب أبو القاسم

فقال ابن رشد حينها:

ــ مادام الأمر كذلك ، فهم لا يحتاجون إلى أشخاص كثيرين. شخص واحد فقط يستطيع أن يروي أي شيء وإن كان معقدا.

تقليد لمسرح صيني شاهدته في نموذج قرية صينية

و خلال عهد أسرة "سونغ" الشمالية ، زار الشاعر الشهير شي سو – 1037 1101 مدينة جوانزو و رأى معبد Baozhuangyan **، وكتب قصيدة ذكر بها "** Liu Rong **(أشجار بانيان الستة) وهي شجرة الأثأب بالعربية, لأنه رأى ستة من أشجار البانيان هناك. ومنذ ذلك الوقت سمي معبد أشجار بانيان الستة.**

وكان البرتغاليون أول الأوروبيين الذين يصلون عن طريق البحر فى قوانغتشو عام 1514**، و قاموا باحتكار التجارة الخارجية في الميناء من خلال** 1517**. ثم طردوا في وقت لاحق من مستوطناتهم فى قوانغتشو** Cantão **باللغة البرتغالية، ولكن بدلا من ذلك منح استخدام ماكاو كقاعدة تجارية مع المدينة في** 1557**, أثناء بحثهم مصادر جديدة لتجارة الحرير والفخاريات. تبعهم الإنجليز في القرن الـ**17 **م، ثم الفرنسيين والهولنديين في القرن الـ** 18 **م . ويعتقد أن " كلمة كانتون" نشأت من** Cantão **البرتغالية، التي كانت مستنسخة من قوانغدونغ , و يقال بأن العرب أطلقوا عليها هذا الاسم والذي يعني المناطق المفصوله عن بعضها البعض, وتسمى اللغة المحكية لسكان المدينة وماحولها من المناطق والمدن باسم اللغة الكانتونية وهي كذلك لغة أهل ماكاو وهونغ كونغ وعدد كبير من**

الصينيين المهاجرين في آسيا وأوروبا وأمريكا. وبعد سيطرة الصين على تايوان في 1683، أصبحت حكومة "تشينغ" أكثر انفتاحا على التجارة الخارجية. فظهرت جوانزو بسرعة باعتبارها واحدة من الموانئ الأكثر ملاءمة للتجارة الدولية فوصلت إليها السفن من جميع أنحاء العالم.

و في حدود عام 1690 كان البرتغاليون في مكاو و الأسبان في مانيلا و الأرمن و المسلمون في الهند يقيمون علاقات تجارية مع المنطقة, بالإضافة إلى الإنجليز و الفرنسيين مع نظام كانتون.

ثم بدأت السفن بالقدوم إلى المنطقة حيث كانت شركة "أوستند الهند العامة" في عام 1717م, وشركة الهند الشرقية الهولندية عام 1729م, وأول سفينة دانماركية في عام 1731م, ثم تلتها الشركة الآسيوية الدانماركية في عام 1734م, وشركة الهند الشرقية السويدية في عام 1732م, ثم تلتها سفينة من شركة بروسيا و تريست, و أول سفينة أمريكية كانت في عام 1784, وفي عام 1788م وصلت أولى السفن الأسترالية.

جانب من المدينة يبين حقبتين من البناء في العصر الحديث

وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كانت جوانزو من أكبر مؤانئ العالم و كانت تضم ثلاثة عشر مصنعًا آنذاك, وهو التميز الذي حافظت عليه المدينة حتى حرب الأفيون الأولى في عام 1839م, ثم فتحت منافذ و موانئ أخرى في الصين بدءًا من عام 1842م, و كانت جوانزو خلال هذه الفترة واحدة من أكبر ثلاث مدن عالمية . وفي عام 1918، أنشئ المجلس الحضري للمدينة و "قوانغتشو" أصبح الاسم الرسمي للمدينة. "بانيو" صار اسم إحدى مناطق المدينة الإدارية في الجانب الجنوبي من مدينة "قوانغتشو".

منطقة تيانغ خا الحديثة في المدينة

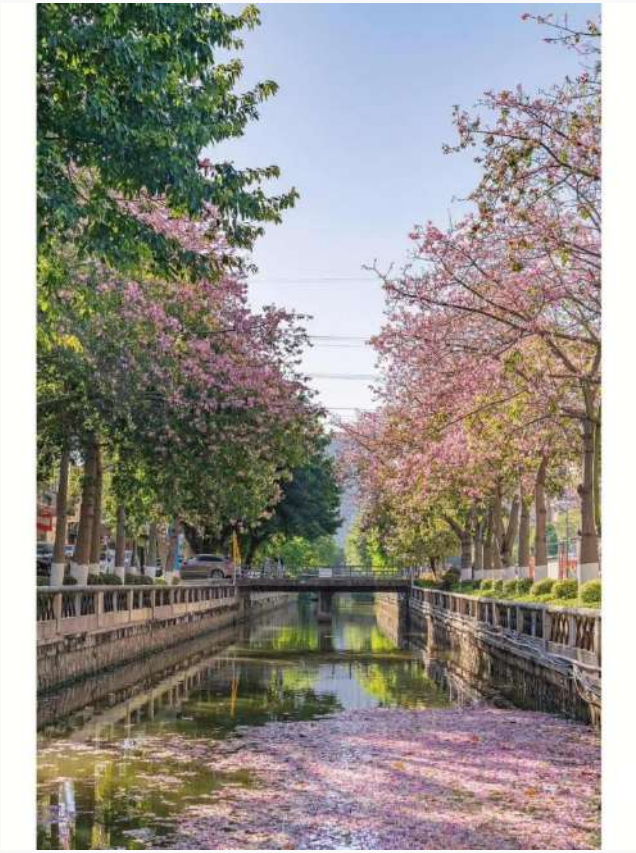

مدينة الحدائق والورود طوال العام

احتلت القوات اليابانية من قوانغتشو 12 أكتوبر 193 إلى 16 سبتمبر 1945 ، بعد تفجيرات عنيفة في المدينة، وأجرى الجيش الإمبراطوري الياباني وحدة الأبحاث البكتريولوجية رقم 8604، وهي جزء من وحدة 731، حيث قام

الأطباء العسكريون في الجيش الياباني بإجراء التجارب على السجناء المدنيين من الصينيين .

و بالنسبة للمجال الإقتصادي فإن المدينة تطورت تطورًا مذهلا بعد الثورة الصينية في أكتوبر عان 1949م, ومنذ عام 1970م, أصبحت المدينة واحدة من أكبر المدن الصينية في النمو والإقتصاد, قوانغتشو هي المحور الرئيسي للتصنيع فى دلتا نهر اللؤلؤ، واحدة من مدن البر الرئيسى للصين التجارية والصناعية. في عام 2021 وصل اجمالى الناتج المحلى (444 مليار دولار)، وهو مايفوق الناتج المحلي لدولة نفطية كنيجيريا على سبيل المثال.

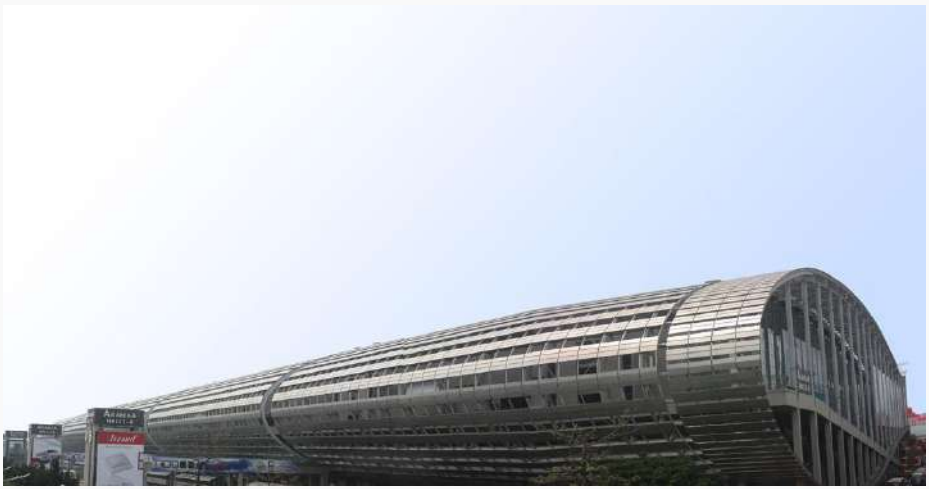

صورة بانورامية التقطها لأحد مباني معرض كانتون الدولي

واحد من متاحف المدينة لشخصية تاريخية هو الدكتور صن يات سن أول رؤساء الصين قبل الثورة

تتميز مدينة "جوانزو" بثقافتها التجارية التي أهلتها لتكون مركزا لتجمع الجاليات العربية والعالمية, حتى الذين لا يوجد لديهم عمل في هذه المدينة تبقى هي نقطة الانطلاق إلى كل أنحاء الصين, تحتوي مدينة جوانزو على مئات أسواق الجملة التي تستهدف الأجانب, كما أن الحكومة الصينية بعقلية

فريدة جبارة استطاعت أن تستفيد من تواجد العديد من المدن الصغيرة أو بالأحرى التي كانت صغيرة فيما مضى بجوار مدينة "جوانزو" لتجعل منها أسواقا عالمية بدورها تحوي عدد هائلا من الأسواق والمصانع في مجالات الإلكترونايات والأثاث والملابس والمواد الصحية والإلكترونية وهلم جرا من المجالات والأفكار الصينية العبقرية, لكن أكثر ما يميز جوانزو هو معرض كانتون التجاري أو معرض الاستيراد والتصدير الصيني الذي تم افتتاحه عام 1957م, ولم يتوقف حتى أثناء جائحة كورونا وإغلاق المطار عمدت الصين إلى فكرة عقده عبر الانترنت لتعويض غياب العملاء, وأنا شخصيا رغم سنوات حياتي الطويلة في الصين لكني أدركت حجم تأثير المعرض على المدينة في فترة الإغلاق حيث غابت وفود الزائرين ولم تعد بعض الشوارع المحددة التي يرتادونها والمطاعم مزدحمة كما ألفت في فترة انعقاد المعرض السنوية في شهري أبريل وأكتوبر من كل عام, ناهيك عن عدد هائل من الصينيين الذين لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بخدمة أولئك الزوار.

الفهرس

حوار مع يهودي على متن الطائرة	_____	7
سائق التاكسي في صنعاء الذي أصبح صديقي	_____	19
دار الحجر.. أسطورة بناء	_____	31
أنا من أصل آذري	_____	42
دردشة رمضانية على ضفاف نهر اللؤلؤ	_____	50
هونغ كونغ – شنزن باتجاه واحد	_____	59
شنزن.. أعجوبة العجائب الصينية	_____	79
حينما قابلت آخر ضابط سياسي بريطاني في ردفان	_____	146
جيبوتي .. سندريلا قبل منتصف الليل	_____	154
المطاعم اليمنية.. سفارات فوق العادة	_____	188
جوانزو .. مدينة اللؤلؤ الساحرة	_____	199